١٦ فبراير سنه ١٩٦٧

المكتبة الثقافية
جامعة مصرية
١٦٩

اليهـود
أنثروبولوجيًّا

الدكتور جمال حمدان



اهداءات ٢٠٠٢

اسرة الاستاذ/ محمد حسنين كرام

الاسكندرية

المكتبة الثقافية

١٦٩

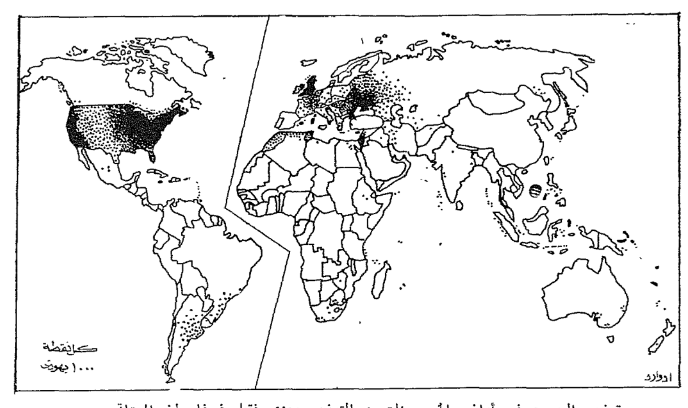
اليهود

أنثروبولوجيا

الدكتور جمال حمدان

دار
الكاتب العربى
للطباعة والنشر
بالقاهرة

بإشراف : د. شكرى محمد عياد



توزيع اليهـود فى أواخر الخمسـينات • التوزيع رمزى فقط فى فلسطين المحتلة

اليهود

أنثروبولوجيا

« ان العرب واليهود أبناء عم من الناحية العنصرية » . بهذه الجملة الخطيرة وبهذا الجزم القاطع يخاطب فيصل بن الحسين ، الهاشمى الذى سيصبح ملكا على العراق فيما بعد ، يخاطب القاضي الامريكى اليهودى فيلكس فرانكفورتر في ١٩١٩ . وهو بعد أن يضيف الى قولته التشابه فيما تحمله العرب واليهود من اضطهادات ومظالم وفيما تمكنوا من القيام به في طريق تحقيق أهدافهم القومية ، يرتب على تلك المقدمة نتيجة سياسية تتفق معها فيما يبدو له وهى « أننا سنرحب باليهود ترحيبا قلبيا في عودتهم الى البلاد ... وهناك مجال فى سوريا يتسع لنا جميعا » . ويعود نفس المتحدث الى نفس الفكرة ليؤكدها في مؤتمر الصلح بباريس في نفس العام فيعلن أن « هناك صلات وثيقة من القرابة والدم بين العرب واليهود ، كما أنه ليس ثمة تعارض واضح في الصفات المميزة للشعبين » ..

وبعد نحو نصف قرن من هذه التصريحات التى تصدر على مستوى القيادة السياسية ولكنها تتكلم ، أو تسمح لنفسها ان تتكلم ، كما لو بلسان الانثروبولوجيين تعود نفس النغمة لترتفع على نفس المستوى وبنفس اللسان ، حين أعلن السعودى فيصل أثناء زيارته الولايات المتحدة فى العام الاخير انه لايكن شيئا ضد اليهود (يقصد

تمييزا لهم عن الصهيونيين) «لاننا أبناء عمومة فى الدم».
وهذا حسين الاردن آخر الهاشميين يأتى من بعده ليعلن أخيرا جدا أن العرب واليهود عاشوا مراحل طويلة فى التاريخ جنبا الى جنب «فى صداقة وتعاون كأقارب وجيران ..

عميقة اذن هذه الفكرة ، فكرة قرابة الدم بين العرب واليهود ، ومنتشرة متفشية هى اذن بين الكثيرين لا فى الخارج فحسب ولكن بين العرب أنفسهم ، بل وعلى مستوى قياداتهم ، بغض النظر عن كونها قيادات رجعية دعية فرضت أو فرضت نفسها عليهم . ولاجدال أن لهذه الفكرة نتائجها وتخريجاتها السياسية التى يمكن أن تترتب عليها ، كما فعل فيصل بن الحسين فى الواقع حين رحب باليهود فى سوريا فى النص السابق !

فرغم أن من الثابت المقرر فى القانون الدولى أن ترك شعب لوطنه آلافا سحيقة من السنين لايمكن أن يحرمه كل حق فى المطالبة بالعودة اليه الآن ، ورغم أن الفقهاء الدوليين يسخرون من مجرد فكرة اعادة تشكيل الخريطة السياسية للعالم على أساس غزوات وهجرات وتوزيعات الماضى الغابر ، الامر الذى يمكن أن يقلب صورة الدنيا رأسا على عقب بشكل ساخر بل سخيف لايتصور ، نقول رغم هذا كله فان فكرة قرابة العرب واليهود فى الدم قد يمكن أن تلقى بعض ظلال على قضيتنا المصيرية الاولى فى

فلسطين ، وقد يمكن أن تفتح بابا للحلول الخاطئة او الخائنة ، سيئة النية أو ساذجة النية .

وليس هذا مجرد استدلال أكاديمي أو اسقاط منطقي ، وانما هو بالفعل مانجده فى اكثر من دائرة من الدوائر العربية وغير العربية . فليس بعيدا مشروع الملك عبد الله ، الذى اقترحه بنفسه على بريطانيا حلا لمشكلة فلسطين فى الاربعينات ، من انشاء «مملكة سامية» يكون هو على رأسها ويكون لليهود فيها حكمهم الذاتى ! وفى السنوات الاخيرة ترددت فكرة « الاتحاد الفيدرالى السامى » بين بعض اليهود من صهيونيين وغير صهيونيين وضد صهيونيين . ولعلنا أن نكتفى منها هنا بذكر مشروع الفريد ليلينتال فى كتابه الاخير The Other Side of the Coin الذى يقترح فيه أن يعود الصهيونيون الاسرائيليون الذين من أصل أوربى الى اوربا ، ويبقى الاسرائيليون الذين هم من اصل شرقى فى فلسطين ، وذلك مع عودة عرب فلسطين اليها ليعيشوا معهم فى دولة واحدة جديدة ، تدخل مع الوقت فى علاقات اقتصادية مع بقية الدول العربية ، متطلعة الى اتحاد اقتصادى مع الاردن وغزة ومتجهة فى النهاية الى « اتحاد سامى » كبير !

ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه المشروعات او نقدها ، فكل حل لايعيد الوضع الى ماكان عليه قبل ١٩٤٨ بل قبل ١٩١٨ مرفوض بلا نقاش ، وكل حل لايزيل اسرائيل من الوجود لامحل له من البحث العلمى ، ولكن سؤالنا المحورى هاهنا هو الاساس الجنسي المزعوم في تلك المشروعات : احقا نحن أقارب اليهود وأبناء عمومتهم ؟ على اى

أساس علمي ذلك ، وأي دليل تاريخي ينهض بذلك ؟ وواضح أن المجال هو مجال الانثروبولوجي والانثروبولوجيا — علم الانسان — بما يحلل من تاريخ قديم وحديث وبما يدرس من لغة ووثائق دينية وبما يقيس من أجسام وصفات تشريحية ووراثية ... الخ .

ونحن نلاحظ أن أغلب كتاباتنا في العربية عن العدو الاسرائيلى تأخذ في جملتها الصبغة السياسية المباشرة أو غير المباشرة التى تعامل العدو كمعطيات مفروغ منها أو ككم معلوم بدرجة أو بأخرى دون أن تحاول ان تنفذ الى حقيقة كيانهم وتركيبهم : فالكل يهود أو صهيونيون ، والكل يعيشون في كنف الاستعمار وحمايته ، والكل اتى بصورة غامضة من نسل يهود الشتات الذين أتوا بدورهم بطريقة ما من سلالة يهود فلسطين التوراة ... الخ . وفى هذا الاطار التجريدى الضيق ، أو المتعجل غير المستأنى — الذى قد يكون عمليا ومفهوما في ذاته — تبدو صورة العدو فى أذهاننا باهتة عائمة بالغة السطحية ، ونبدو أحيانا — اكاد اقول — كما لو كنا نطارد شبحا ! ونحسب أننا لهذا كله بحاجة الى دراسة علمية محققة تقتنص هذا الشبح ، تجسده ، ثم تشرحه أصلا وتاريخا ، جنسا وتركيبا ، تطورا وتوزيعا ... الخ .

ونحن هنا سنبدأ بالاصول القديمة فى التاريخ الجنسى والدينى ، ثم نتتبع انتشار اليهود فى العالم هجرات وتوزيعا ، حتى اذا ما اكتملت لنا الصورة الراهنة حللنا التكوين الانثروبولوجى لليهود حتى نعرف من هم وما الدماء التى تجرى فى عروقهم ، والى أى حد ينتمون

الى أصـــولهم الاولى ومن ثم الى آية درجة من القـــرابة ينتسبون الى العرب أو ينتسب العرب اليهم .

وفى تقديرنا ان مثل هذه الدراسة أصبحت ضرورة شرطية لأى فهم عربى سليم أو عرض لقضيتنا الكبرى بعد أن اختلط الامر بالدعايات الصـــهيونية المغرضة المضللة وتزييف التاريخ وابتسار الحقيقة العلمية ذاتها . كذلك لابد أن نبادر من البداية فنحذر من أن كثيرا من الكتابات العلمية البحتـــة فى الموضـــوع ينبغى ان تتنـــاول بحـــذر واحتراس شديدين لانها تعتمد ــ فعلا أن لم تعترف علنا ــ على المصادر اليهودية والصهيونية أساسا ، وهى من ثم قد تنقل عمـــدا أو عن غير عمـــد وجهات نظر محــــددة ومحسوبة سياسيا .

ونحن من جانبنا ــ على صعوبة المحـــاولة نفســـيا وقوميا ــ لن نترك لتحيزنا السياسى الحق والواجب أن يتدخل فى معالجة علمية موضـــوعية ، لا لســـبب الا لان الدراسة العلمية الخالصة تؤازر ــ كمـــا يتفق ولحسن الحظ ــ القضية السياسية وتدعمها ولاتتعارض معها فى الجوهر والصميم . ان الحق والحقيقة ــ كما سنرى ــ فى جانبنا على حد سواء .

فى التاريخ القديم

أول مانسمع عن اليهود فى التاريخ مع ابراهيم ــ أبى الانبياء ابراهيم الخليل ــ الذى ظهر مع قومه فى القــرن الثامن عشر قبل الميلاد كجماعة من الرعاة الرحــل على المشارف والتخوم الاستبسية لجنوب العراق الذى كان يــؤلف دولة الكلبانيين فى أور . ومن قبــل كان ابراهيم وقومه قد خرجوا من قلب الجزيرة العربية التى نشئوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة التى تأصلت فى ذلك « الخزان البشرى » الشهير الذى لم يتوقف عن أن يقذف ــ كاقليم طرد وكصحراء فقيرة ولكنها «ولود» ــ يقذف بالموجة تلو الموجــة الى منطقة الهــلال الخصيب المتاخمة والجذابة .

ففى حوالى ١٨٠٠ ق.م هاجر ابراهيم وقومه ، فى دورة عكس عقارب الساعة ، شمالا بغرب ثم جنوبا على طول حواف الهلال الخصيب حتى وصلوا الى حوران ثم الى فلسطين . وهناك سيولد لهاسحق ، ولاسحق سيولد يعقوب ، ومن أبناء يعقوب الاثنى عشر ستتأصل الاسباط أو القبائل الاثنتا عشرة الشهيرة فى التاريخ والتــوراة .

ولكن هجرة ابراهيم الى فلسطين وان كانت أولى هجرات القبائل اليهودية فانها لم تكن الاخيرة ، ذلك أنهم لم يأتوا مرة واحدة كجسم موحد ، وانما على عدة دفعات جاءوا ومن عدة طرق وتحت عدة قيادات . والهجرة الثانية مثلا كانت فى القرن ١٤ ق٠م .

ولابد لنا هنا من وقفة سريعة عند تسمية — أو بالاحرى تسميات اليهود . ثمة تسميات ثلاث مترادفات: اسرائيل والعبريون واليهود · والاولى نسبة مباشرة الى اسرائيل ، الاسم البديل ليعقوب . أما العبريون فالمقول انها مشتقة من هجرتهم من كلدان الى كنعان حيث «عبروا» النهر — نهر الفرات أو نهر الاردن ، لاندرى أيهما المقصود تماما — فسموا بالعبرانيين · ويقابل هذه التسمية عند المصريين القدماء كلمة Habiru ، وعند البابليين Khebirru ، ولو ان هذه وتلك تعنى ، فى رواية ، البدو او اللصوص او المرتزقة كما وصفهم اعداؤهم فى كنعان اشارة الى طبيعتهم كرعاة متخلفين حضاريا بالنسبة لهم · أما التسمية باليهودية فتدل أصلا على أبناء يهودا Jehudah ، Judah أحد أبناء يعقوب ، الذين أصبحوا يمثلون البقية الهامة من بنى اسرائيل بعد الاسر البابلى ، فصارت تطلق فيما بعد على الاسرائيليين جميعا . واسم يهودا نفسه قريب من اسم اله الشعب ياهو Jehovah Jahveh التى قد تكون بدورها تحريفا للنداء العربى يا هو (؟) .

كيف وجد اليهود فلسطين ؟ وجدوها أرض كنعان اساسا ، نسبة الى سكانها الكنعانيين . والكنعانيون فى التوراة أبناء كنعان بن حام بن نوح ، وهم أول من سكن فلسطين على ارجح الآراء . وفى الدراسات السامية القديمة ان الكنعانيين ـ هم الآخرين ـ قبيلة سامية من الساميين الشماليين ، جاءت أصلا من الجزيرة العربية منذ ٢٥٠٠ ق.م ـ وفى رواية أخرى منذ ٣٥٠٠ ق.م ـ وكانوا قد استقروا بفلسطين منذ ألف ـ أو ألفى سنة واقاموا بها حضارة راقية . كذلك فان جزءا من الكنعانيين كان قد رحل منها الى الساحل اللبنانى حيث عرفوا بالفينيقيين . ومعنى أرض كنعان هو الارض المنخفضة .

الى جانب الكنعانيين فى فلسطين كان ثمة كوكبة أخرى من القبائل السامية الصغرى كالايدوميين والعمونيين والمؤابيين على تخوم أرض كنعان ، خاصة حول جنوب البحر الميت . وثمة كذلك كان العموريون بعيدا الى الشمال ، وهم اولاد اناك Anak فى التوراة ، وكانوا قد سيطروا على جزء كبير من فلسطين قبل الزحف المصرى الفرعونى نحو الشمال حوالى ١٦٠٠ ق.م. وحتى نستكمل الصورة ، يحسن ان نذكر أيضا ـ خارج فلسطين ولكن بجانبها توا ـ الآراميين الذين استقروا فى سوريا كموجة سامية منذ القرن ١٤ ق . م : أى فى تاريخ يتعاصر مع الموجة الثانية للعبريين .

ولايبقى لنا الآن فى التتابع التاريخى سوى

الفلســـــطينيين Philistines الذين يعـــدون ـ وحدهم تقريبا من بين كل العناصر والموجات المذكورة ـ أحدث عهدا من العبرانيين فى المنطقة . أصل هـؤلاء من « شـــعوب البحر sea-peoples » المشـــهورين فى التاريخ القديم والذين أتوا من العــالم الايجى بعــامة وانتشروا فجأة وبصورة درامية على سواحل اللفانت أو مشرق البحر المتوسط نتيجة اضطرابات فى موطنهم لعلها نجمت بدورها عن تدفق الاغريق . فقدر للفلسطينيين ـ الذين يرجح البعض كريت أصلا لهم ـ أن يستقروا على ساحل أرض كنعان فى ١٢٠٠ ق ٠ م ، أى أيام حروب طرواده ، حيث أعطوها اسمهم منذئذ .

وقد كان على العبرانيين ليستقروا بأرض كنعان أن يحاربوا الكنعانيين ، ولكنهم لم يسيطروا الا على التــلال والاراضي الفقيرة الداخلية ، وظلت السـهول الغنية فى أيـدى الكنعانيين الاصليين . وأغلب تاريخ اليهود في تلك المرحلة تاريخ دموى لا أخلاقى يدور حـول الحرب والغزو ، الا أن الهزيمة كانت من نصيبهم غالبـا ، وعلى يـد الفلسطينيين اقوى أعدائهم بصفة خاصة . حتى اذا كان منتصف القرن ١٧ ق.م ، أى بعد ١٥٠ سنة فقط من هجرة ابراهيم ، هاجر يعقـوب وأولاده الى مصر بسبب القحط المشهور . وفيها استقروا بأرض جاشـــان Land of Goshen (وادى الطميـــلات والشرقية) نحوا من ٣٥٠ سنة الى أن خرج بهم منها سـيدنا موسى (من الجيل السابع بعد ابراهيم) حوالى ١٣٠٠ ق.م وذلك هـربا من اضطهاد فرعون (رمسيس الثانى) الذى استعبدهم ((ومرر حياتهم في الطوب والملاط)) انتقاما منهم لتعـاونهم في خيـانة واضـحة مع الهكسوس غزاة مصر .

وفى التوراة أن قوة هذا «الخروج» كانت ٦٠٠ ألف نسمة . وكانت العودة الى أرض كنعان الهدف ، غير ان خـوف اليهود من الكنعانيين «العمـالقة» أدى بهم الى المعصية فعقاب التيه فى سيناء ٤٠ سنة . ويرى البعض أن الحكمة من التيه ، الذى امتد بذلك الى مدى جيـل كامل تاريخيا فى بيئة صـحراوية قاسية جغرافيا ، هـو اخضاع اليهود لعملية صـارمة من «الانتخاب الطبيعى» تصفى وتستبعد منهم العناصر الضعيفة الخائرة وتنتخب العناصر القوية الصـلبة ، وبذلك تديل من جيـل هش منسحق الى جيل مجدد فوار يصلح للرسالة . وهـكذا كان ، الى أن قادهم يشوع الى نهر الاردن حيث انتزعوا بعضا من أرض كنعان فى الداخل ، ولكن دون العاصـمة يبوس (القدس) وساحل الفلسطينين .

وفى فجر الالفالاولى قبل الميلاد بالضبط (بالتحديد عام ١٠٠٠ ق.م) وحد داود الاسباط أو قبائل اسرائيل الاثنى عشر ، وهـزم اليبوسيين والفلسطينيين وأسس ووسـع مملكة اسرائيـل حتى امتـدت أرض اسرائيـل Erets Israel » من دان فى الشـمال الى بير سبع فى الجنوب ، واتخذت من يبوس عاصمة لها بعد أن تحول اسـمها الى أورشـليم Ierouschoulaim أى مدينـة السلام . غير أن الدولة ــ التى لم تصل قط او بالكاد الى الساحل ــ لم تلبث أن انشـطرت بعد خليفتهسـليمان صاحب الهيكل الى مملكتين : مملكة يهوذا جنوبا فى هضبة

يهودية ، وتضم قبيلتى يهودا وبنيامين ، ومملكة اسرائيل شمالا فى السامرة ، وتضم القبائل العشر الباقية . ومن المهم والطريف أن نلاحظ أن حدود هاتين الدولتين تتفق الى حد او آخر لا مع رقعة اسرائيل المزعومة حاليا وانما مع رقعة الضفة الغربية من دولة الاردن .

والمهم أن الدولتين ، اللتين أصبحتا متعاديتين متحاربين ، وقعتا فى سياسة المضاربة بين مصر والعراق أو الخضوع لهما ، فتعرضت المملكة الجنوبية لطرقات مصر مرتين الاولى على يد شيشنق والثانية على يد نخاو ، الى ان جاء دور المملكة الشمالية حين قضي عليها نهائيا سرجون الاشورى فى القرن ٨ ق٠م (عام ٧٢١) ، ثم قضى نبوختنصر البابلى على الجنونية فى القرن ٦ ق٠م حيث دمر أورشليم والهيكل (٥٨٦ ق٠م) . وبذلك زالت الى الابد دولة اليهود فى فلسطين بعد حياة طولها أربعة قرون فقط يغلب عليها الطابع الدموى العنيف ، بينما أن كل اقامة اليهود المتصلة فى فلسطين لم تزد عن ستة قرون من ١٢٠٠ ق٠م حتى ٥٨٦ ق٠م .

الشتات

الشتات البابلى

واذا كانت الفترات السابقة معا هى المرحلة التكوينية ـ سفر التكوين ـ فان من بعدها يبدأ سفر الخروج والشتات Diaspora الذى يمكن أن نميز فيـــه ثلاث دورات أو أربعا • فقد بدأ سرجون بنقل كثير من اسرائيلى السامرة من أبناء القبائل العشر الى بابل وأسكن مكانهم بعض أسراه من البلاد المفتوحة الأخرى • ولكنه نبوختنصر بالذات الذى نقل أغلبية اليهود ـ آخرون يقولون ربع سكان يهودية ـ أسرى الى بابل ، والمقدر أن عدد اليهود قبل ذلك بلغ زهاء ثلاثة أرباع المليون •

ذلك كان « الأسر البابلى » الشهير الذى يمكن أن يعد الشتات الأول • واذا كان الفرس ، بعد أن هزموا بابل (على يد كسرى ٥٣٨ ق٠م) واحتلوها وممتلكاتها فى فلسطين ، قد سمحوا لليهود بالعودة الى أورشليم بعد نحو نصف قرن من الأسر البابلى ، فان قلة ضـــئيلة هى التى عادت ، وتقدر بنحو ٥٠ ألفا وحتى هـــذه لم تجـــد ترحيبا لأن أرض أجدادهم كان يحتلها الآن أسرى سرجون

الذين وطنوا بها ، ولذلك أسـكنوا فى منطقة يهودية الجنوبيـة حيث لم يطرب لعودتهـم حتى اليهـود المقيمون أنفسهم ٠

أما الأغلبية المطلقة منهم فقد بقيت فى العراق حيث كونت مستعمرات هامة نمت حتى بلغت فى عهد المسيح مليونا بل وأكثر من المليون فى القرون التالية ابان العصور العربية الاسلامية ٠ وقد امتـد انتشار اليهود فى العراق شـمالا الى كردسـتان ٠ غير أن يهود العـراق ـ مـع كل سـكانه ـ تعرضوا للابادة مع الطوفان المغولى حيث هوى عددهم الى بضـعة آلاف فقط ٠ على أن يهود العراق كانوا نواة الشـتات شرقا ، فمنهم انشـطر يهود فارس الذين غادروا العراق لأول مرة فى عهـد كسرى، ولـكن هجرتهم الكبرى كانت فى القرن الثانى عشر الميلادى ٠ وبالمثل كان يهود هيرات فى أفغانسـتان ويهود بخارى وسمرقند فى التركستان شظية من نواة فارس ٠

كذلك يقـال أن يهـود القوقاز ـ الذين يردون مستعمراتهم المبعثرة فى تضاعيف جبالها هناك الى العصر الأشورى ، ولو أن أول ذكر لهـا تاريخيا يرجع الى القرن الخامس الميلادى ـ يقال انهم أتوا منفارس ونواتها القديمة٠ ومن هذه المراكز الأولية والثانوية يمكن أن نتتبع انتشار اليهود حتى نهـاياته ومسـتعمراته القصـوى فى الشرق الأقصى بالهند والصين ٠

ولعل من الجائز لنا ان نذكر هنا يهود الجزيرة العربية قبل الاسلام ، ولو اننا لانعرف على وجه الدقة تاريخ ظهورهم بها والطريق التى سلكوها اليها ، ومن ثم لاندرى اذا كان امتدادهم اليها يرتبط بالشـــتات البابلى او بما تلاه من شـــتات • ففى الجاهليـــة الأخيرة كان اليهود غير قليلين فى مدن وسط الجزيرة وجنوبهـا خاصة الحجاز واليمن . ففى الحجاز كانت المدينة وخيبر من معـاقلهم ، بل كانت المدينة تحمل اسما يهودية هو يثرب . غير أن الارجح أن يهود الجزيرة كانوا في معظمهم عربا محليين متحـــولين وليسوا من يهود فلسـطين الوافدين . أما في اليمن بالذات فقد تحولت أعداد كبيرة من سـكان العصر السبئى الى اليهودية ، بل كان أحدملوك سبأ في القرن السادس الميلادى يهوديا هو ذو النواس . كذلك فقد كان المهاجرون الحضارمة الذين عمروا الحبشة واسسوا الامبراطورية الحبشية يهودا أصـلا ثم تحولوا مبكرا الى القبطيـة غير ان ظهور الاسـلام صفى اليهودية تمـاما في الجزيرة العربية نفسها فيما عدا اليمن حيث ظل اليهود الى وقتنا هذا »

هذا ، واذا كان شتات الأسر البابلى قد اتجه أساسا نحو الشرق ، فمن المحتمل أن بعض الهجرة اتجهت غربا الى شمال افريقيا (المغرب) حيث يدعى اليهود ممن يسكنون الجبال اليوم ويتكلمون البربرية أن أجدادهم تركوا فلسطين اليهـا قبل الأسر البابلى نفســه ، وحيث يسمون أنفسهم البلشتيم Plishtim ، والكلمة تحريف واضح لفلسطين • بل هنـــاك من يرى أن من المحتمل أن اليهود دخلوا شمال افريقيــا مع الفينيقيين ، والمؤكد على أية حال أن اليهودية كانت منتشرة ــ بالتحول ــ بدرجة ما فى حين ما بين عدة قبائل بربرية حتى ما قبل قدوم الاسلام •

أما الشتات الثانى من شتات اليهود فيتعاصر مع المرحلة الهللينية التى ، بعد قرنين من السيادة الفارسية ، تبدأ بفتوح الاسكندر وتستمر مع السلوقيين والبطالسة ثم البيزنطيين • والاتجاه العام فى هذا الشتات هو نحو الغرب هذه المرة • فاذا كان بعض اليهود فى فلسطين قد قاوموا الصبغة الهللينية بعنف وقاموا فى القرن الثانى قبل الميلاد بالثورة المكابية المتعصبة التى أنشأت دولة يهودية ضد – هيللينية ، فان الكثيرين منهم انتشروا انتشارا واسعا بعيد المدى فى كل العالم الهللينستى والبيزنطى •

ففى مصر قدر أن ثلث سكان الاسكندرية البطلمية كان من اليهود ، كما يقال أنهم قاموا فيها بثورة قتلوا فيها ٢٢٠ ألفا من السكان الأصليين (؟) • وعدا مصر ، فقد وجد اليهود فى سوريا وآسيا الصغرى من قبل بدرجة أو بأخرى • وعدا هذا وذلك ، كان ثمة مركزان رئيسيان لتركز اليهود : البلقان ، وسواحل البحر الأسود الشمالية، وكل يسبق العصر المسيحى بوقت طويل • وربما أرسل يهود البلقان منذ ذلك الحين عناصر منهم الى جنوب الروسيا خاصة كييف حيث كانت المنطقة خاضعة بشدة للمؤثرات البيزنطية • أما مركز ساحل البحر الأسود فكان قطبه القرم حيث ذهب كثير من اليهود مع الاغريق بعد الاسكندر •

وقد أفلت هؤلاء اليهود من طرقات وموجات القوط والهون والتتار التى اجتاحت جنوب الروسيا ٠

غير أن للتتار هنا دورا هاما في التاريخ اليهودى ، فقد قامت منهم دولة فى القرن السابع الميلادى هى دولة الخزر التترية التى تحولت بالجملة تماما فى رواية أخرى ، الى اليهودية فى القرن الثامن اى أيام شارلمان ، بينما ـ بالمقابل ـ تحول اليهود المهاجرون الى لغة الخزر التركية المسماة بالجاجتاى Jagatai وبهذا أصبح فى المنطقة يهود أصليون مهاجرون ويهود متجولون من السكان المحليين ٠

وقد كان للخزر مركزان ، واحد على سواحل بحر قزوين (بحر الخزر عند العرب المعاصرين) عند مصب الفولجا ، والثانى فى القرم ٠ وقد ألغى المركز القزينى فى القرن العاشر الميلادى ، ولكن المركز القومى ظل حتى القرن الحادى عشر الى أن تحطم على يد دولة كييف السلافية الجديدة التى تمثل طلائع الدولة الروسية الحديثة ٠ وعندها انتشر كثير من الجزر من يهود ومتهودين فى أجزاء كثيرة من جنوب الروسيا ، بالاضافة الى ما عسى أن يكون دخلها من قبل من يهود البلقان المهاجرين حيث يمكن أن نتتبع ظهورهم ـ على الطريق ـ فى روثينيا فى القرنين ١٠ـ١١ ، وفى بولنده فى القرنين ١٢ـ ١٤ ٠ وفى القرن الثانى عشر (عام ١١١٠ بالتحديد) منعت الروسيا نهائيا دخول أى يهود جدد بها وحددت للموجود منهم مناطق معينة لايقيمون خارجها ، وهى التى ستؤلف النطاق الذى سيعرف تاريخيا « بحظيرة اليهود Jewish Pale » ٠

الشتات الرومانى والوسيط

يبقى لنا الآن الشتات الثالث والأخير فى تاريخ اليهود القديم • انه الشتات الرومانى الذى أخذهم بعيدا الى العالم الرومانى أى الى الغرب الأقصى بالنسبة الى الموطن الأصلى فلسطين ، وذلك فى حركة مع عقارب الساعة ستستمر عبر العصور الوسطى حتى العصور الحديثة • وقد بدأ هذا الشتات فى الواقع مع الثورة المكابية ، لكنه اكتمل مع الفتح الرومانى لفلسطين الذى يكاد يتعاصر بدقة مع بداية العصر المسيحى •

فلقد تواترت ثورات اليهود ـ الذين لم يعودوا يزيدون على أقلية من سكان فلسطين ـ على الحكم الرومانى الذى رد بتخريب أورشليم والهيكل وبابادة اليهود فى مذبحة سنة ٧٠ ميلادية الفاصلة (تيتوس) التى صفت أغلبهم محليا وفر منها اقلهم الى مصر وسوريا • غير أن بقايا اليهود عادوا الى التورة فى ١٣٥ ميلادية حيث قوبلوا بمذبحة نهائية (هادريان) ختمت الى الأبد على مصير اليهود فى فلسطين كدولة وكقومية • فعدا تدمير أورشليم والهيكل مرة أخرى، صفيت بقايا اليهود بالابادة والهجرة •

فعن الأولى يقول جوزيفوس المؤرخ Josephus ان ١٫٣٥٠٫٠٠٠ قتلوا فى المعارك التى يعددها ، كما يقال ان ٩٠٠٫٠٠٠ آخرين أسروا أو بيعوا كرقيق ، كما مات

مئات من الآلاف غيرهم من المجاعات والأوبئة والمذابح ·
ويعلق هنتنجتون ـ وهو جغرافي يهودي لا يخفي تعصبه ـ
بأن هذه أرقام مبالغ فيها بلا شك، ويمكننا نحن أن ننبذها
ونعدها خرافية تماما لأن الأدلة التاريخية واشارات التوراة
نفسها كما رأينا تضع كل تعداد اليهود في حدود تقصر
دون ذلك كثيرا جدا ولا تتجاوز ثلاثة أرباع المليون كحد
أعلى · ومن الناحية الأخرى فان البعض يقدر أن عدد من
أبيد من اليهود في هذه الثورة لا يقل عن ٦٠٠ ألف · فاذا
صح هذا الرقم ، ولعله أدنى الى العقل ، فذاك انقراض
جنسي حقيقي لم يكد يترك منهم شيئا ·

وحتى هذا الذي تبقى تكفلت الهجرة القهرية
بتصفيته · فقد حرم الرومان على اليهود دخول القدس
نهائيا ، وطردوهم من فلسطين الى كل أجزاء الامبراطورية،
وكان هذا هو التاريخ الذي انتهت فيه والى الأبد علاقة
اليهود بفلسطين سياسيا وسكانيا · أنه الخروج الاخير ·
كذلك فقد قتل أو طرد كل اليهود في قبرص · وحتى ندرك
مدى ضآلة ما تبقى من اليهود بعد هذه المذابح والمطاردات،
يكفي أن نذكر أن عدد يهود الخروج الأخير هذا يقدر بنحو
٤٠ ألفا فقط ! وهو رقم لا بد أن نتذكره دائما لما سيكون
له من دلالات جنسية وتاريخية وسياسية عميقة المغزى ·

أما ما تبقى بعد هذا وذاك من يهود بفلسطين فشراذم
ضئيلة ازدادت تناقصا فيما بعد بتحول بعض أفرادها الى
المسيحية · ولعل أهم تلك البقايا السامريون الذين تحولوا

الى قوقعة قزمية مغلقة فى نابلس (Schechem القديمة) حتى أنها لا تزيد اليوم عن مائة أو مائتين! وفى بداية القرن التاسع عشر لم يكن عدد اليهود فى فلسطين كلها ليزيد عن ١٠ آلاف نسمة ٠٠

والملاحظ أن تحولا جذريا طرأ على اليهود بعد هذه الابادة الشاملة والتشريد ٠ فتاريخهم قبل عصر التوراة وبعده تاريخ دموى حربى كله الغزو والعدوان ، وتغلب عليهم فيه صفة الشراسة والعنف ٠ أما بعد مجازر الأشوريين والبابليين ثم الرومان فقد تحول اليهودى فجأة الى شخصية مستضعفة خانعة تحقق أغراضها بالوسائل الناعمة والملتوية وبالتزلف والمكر والخديعة ٠ ويرجع هنتنجتون هذا التحول فى الشخصية الجماعية الى عملية الانتخابات التى فرضتها تلك المجازر حيث بادت فيها العناصر المناضلة المقاومة ولم يبق الا عناصر الجبن والمسكنة والخبث ٠٠٠ الخ ٠ ومنها ومن حينها أخذ اليهود طابعهم الذى عرفوا به فى كل العالم حتى اليوم ٠

على أن يهود الشتات الرومانى لم يأتوا من طريدى فلسطين وحدها وانما من كل مستعمراتهم السابقة القائمة فى العالم الهللنستى ٠ فتبعوا الرومان الى ايطاليا واسبانيا وفرنسا وألمانيا حتى الراين ، وكان طريق الرون ــ الراين ــ فرانكفورت ، وهو طريق التجارة وشريانها التقليدى ، خطا محوريا فى دخولهم العالم الرومانى ٠ ومنذ القرن الثالث الميلادى على الأقل كانوا قد وصلوا الى الراين، حيث تحولت فرانكونيا بالذات الى قاعدة رئيسية ونواة لهم

وكادت عاصمتها فرانكفورت أن تكون عاصمة يهود الشتات الجديد • ومنذ ذلك الوقت نشأت علاقة تاريخية وثيقة بين مدينة فرانكفورت واليهود ستظل عبر القرون حتى يومنا هذا •

ويقدر البعض عدد اليهود في الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادى بما يتراوح بين ٤ ، ٧ ملايين أى نحو ٧٪ من مجموع السكان . وهذا الرقم – أيا كان نصيبه من الدقة أو الصحة – ينبغي ان نذكره جيدا وأن نقرنه في الذاكرة بعدد بقايا يهود فلسطين عند الخروج الاخير والبالغ ٤٠ ألفا ، لان معناه أن اليهود في الشتات ضاعفوا عددهم بين ١٠٠ ، ١٨٠ مرة في أقل من ٥٠٠ سنة (!) ، وهو معدل فلكي لايمكن الا أن يلقى ضوءا حاسما على طريقة نموهم ، ان تزايدا طبيعيا او تزايدا بالتبشير والتحول .

بيد أن العصور الوسطى لم تلبث أن أتت بحروبها الصليبية التى أشعلت نار الاضطهاد الدينى ضد اليهود فى جميع أنحاء أوربا مثلما أثارتها ضد العرب خارجها وعلى أطرافها ومشارفها • هنالك بدأت عمليات الطرد بالجملة والابادة التى ستؤدى فى النهاية الى تغيير جذرى فى توزيع اليهود فى أوربا • ففى أواخر القرن الرابع عشر (عام ١٣٩٤) اختفى يهود فرنسا تماما بعد أن طردوا بالجملة منها وتشتتوا فى الدول المجاورة • أما يهود ايطاليا فظلوا متقوقعين بها حيث يتصل تاريخهم بلا انقطاع وحيث تلقوا – فضلا عن ذلك – هجرات من يهود بلاد أخرى فيما بعد •

أما يهود ألمانيا واسبانيا فسوف يكون لهم الدور الأكبر فى قصة اليهود فى العصور الحديثة • فهؤلاء هم الذين تعرضوا لأشد أخطار الابادة والطرد ، ومنهم ومن

نسلهم سيستمد التقسيم الثنائى الرئيسى الذى يفرق بين يهود شمال أوربا من ناحية جنوب أوربا وحوض البحر المتوســـــط من ناحية أخرى ، أعنى ثنائية الأشكنـــاز والســـفاردى عـــلى الترتيب Sephardim Ashkenazim والاشكنازيم والســـفارديم كلمتـــان قديمتـــان فى التوراة استعارتهما التقاليد اليهودية فى العصور الوسطى لتميز بين يهود ألمانيا ويهود أسبانيا على الترتيب ، اعتقادا منهم بأن يهود ألمانيا ينحدرون من نســـل قبيلة يهودا ، ويهود اسبانيا من نسل قبيـــلة بنيامين • والسفارديم يعدون أو يدعون أنفسهم «ارستقراطية» اليهود على الأساس الدينى، غير أنه قدر للأشكناز أن يؤلفوا الأغلبية الساحقة عدديا ـ ٨٠ الى ٩٠٪ فيمـــا يقدر ـ والطبقـــة المســـيطرة المتفوقة حضاريا الى حد يحتقرون معه السفارديم احتقارا لا يحفلون باخفائه •

فاذا عدنا الى الشتات وبدأنا بالأشكناز ، وجدنا أن أول اضطهاد يتعرض له يهود الراين بألمانيا يبدأ مع الحملة الصليبية فى القرن الحـــادى عشر (عام ١٠٩٦) ، ولو أنهم كانوا قد بدأوا يتسربون الى العالم السلافى ف بوهيميا وبولنده قبل ذلك بقرنين أو أكثر • هنالك بدأت الهجرة الهاربة التى تسارعت خطاها مع الحملات التالية والتى اتجهت أساســـا نحو الشرق • ونحـــو الشرق اتجهت لأن ملوك بولنـــده ، الذين كانوا يعملون على زيادة ســـكان مدنهم ، رحبوا بكل هجرة ، فاغتنم اليهود الفرصة ، وكان خروج

بالجملة وصل الى حد أثار فى النهاية مخاوف بولنده • غير أن انتقال جسم الأشكناز كان قد تم نهائيا ، وتحولت نواة فرانكونيا القـديمة الى مجرد بقـــايا أو الى شبح يذكر بالتوزيعات التاريخية الأولى ، وفى نهاية القرن السادس عشر لم يكن ثمة سوى ثلاث مدن ألمـانية مفتوحة لليهود هى فرانكفورت وفرمس Worms وفيرت Fürth

أما فى بولنده وجنوب الروسيا فقـد التقى اليهود الألمانمع بقايا اليهود البيزنطيين ويهود الخزر الذين كانوا بدورهم قد بدأوا يطاردون نحـو الشمال والغرب على يد الاضـطهادات السياسية الشـهيرة المعروفة فى الروسيا بالبوجروم Pogroms ، والتى اتسع نطاقها ليشمل يهود بولندة بعد تقسيم هذه الدولة وانتقال الشطر الأكبر منها الى الروسيا • وتتمثل آثار هذا اللقاء الآن من بين ما تتمثل فى يهود القرم الذين ينقسمون الى يهود قرائين ، والى يهود القرمشاك Krimshaks الربانيين ، كما تتمثل فىيهود ليتوانيا القرائين •

والمهم أن ذلك اللقاء تحول ـ ولم يكن له بد من أن يتحولـ ليس فقط الى شملية تراكمعددى وتكثيف وتكتيل لليهودية ستعطينا واحدة من كبريات تجمعاتها فى العالم حتى اليوم ، وانمـا تحولت كذلك الى عمليـة خلط ومزج وصهرت سيسود فيها يهود الغرب الألمان عدديا وحضاريا على السواء • ومن أوضح وأبسـط مظاهر هـذه السيادة اللغة الجـديدة التى نشأت عن التفـاعل وهى اليديشـية

Yeddish المستمدة من اللهجة الألمانية العليا Hoch Deutsch التى حملها معهم يهود الغرب ـ وكلمة يديش نفسها تحريف واضح لكلمة يهودى بالألمانية ـ والتى ستصبح أهم لسان بين ألسنة اليهود التى لا حصر لها ٠

أما عنالسفارديم فتبدأ قصتهم مع طرد اليهود ـجنبا الى جنب مع العرب ـ من اسبانيا فى حروب « الاسترداد Reconquista » عـــام ١٤٩٢ بعـــد عصر من الاضطهاد والابادة على يد محاكم التفتيش ٠ والمقـــدر أن عدد يهود اسبانيا العربيـــة وصل فى حين ما الى حد المليون نسمة ٠ وقد انتشر هؤلاء اليهود فى فترات مختلفة الى هـــولنـــدا وانجلترا ، والى ايطاليا وفرنسا ، ولـكن خاصة الى شمال افريقيـــا ابتـــداء من مراكش حتى تونس ، وبالأخص الى الامبراطورية العثمـــانية ٠ ففى الامبراطورية العثمـــانية الحديثة التوسع وجدت الأغلبية الساحقة من السفارديم موطنها الجديد ، ابتداء من البلقان والدانوب حتى الأناضول والشرق الأوسط حيث كانت سالونيك والقسطنطينية من أهم بؤرات تجمعهم ، وحيث التقوا باليهود القـــدامى من بيزنطيين وسابقين للصعر البابلى سواء غرباء مهاجرين أو محليين متحولين ٠

وفى كثير من هذه المهـــاجر الجديدة أصبح الساردیم ـ كالأشكنازيم فى مهجرهم الجديد ـ هم السائدين عدديا بين الجاليات اليهودية ، بل كادوا أن يكونوا العنصر الوحيد فى يهود مدن البلقان ٠ وفى كل هذا المجال الجغرافى أطلق عليهم اسم الأسبانيـــولى Spagnuoli ، Spaniol ، كمـــا

حملوا اليه ـ كالأشكناز ـ لغتهم الاسبانية المحرفة المعروفة باسم اللادينو Ladino ، وظلوا حتى اليوم يلبسون لباسا خاصا ويبدون خصائص حضارية وثقافية تذكر بقوة بفترة اقامتهم الاسبانية •

الشتات الحديث

تلك قصة « اليهودى التائه أو المتجـول » من أول شتات قبل الميلاد الى آخر شتات فى مطالع العصور الحديثة• بيد أن هناك حلقة رابعة تتمم السلسلة ، وتتركز فى القرن أو القرنين الأخيرين ، ولا بأس أن نشير هنا بايجـــاز الى خطوطها العريضة ولعلها خطان رئيسيان أو ثلاثة • وفيها جميعا سيكون الدور الأكبر بطبيعة الحال للأشكنازيم بحكم سيادتهم العـددية ، واذا كان السفارديم قد ســاهموا فى الشتات الحديث فبقدر محدود •

والانتشار الأول والأهم فى الفترة المعــاصرة هو بلا شك انتشار العالم الجديد بمعناه الواسع والولايات المتحدة بصفة خاصة • ويمكن أن نميز فى هجرة اليهود الى أمريكا الشمالية مراحل ثلاثا ، لكل منها قطبها الجغرافى ، وثلاثتها ترسم معا حركة واضحة من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى • فالأولى تتفق مع ما يعرف فى التاريخ الأمريكى « بالعصر الاستعمارى » فى القرنين السادس عشر والسابع عشر • ومصدرها الرئيسى اسبانيا والبرتغــال ، وقوامها السفارديم أساسا ، وطلائعها الأولى مبكرة حقا تتعاصر مع

الآباء المهاجرين والبيورتان ، ولكنها فى الجملةقوة محدودة عدديا ٠

أما المرحلة الثانية ففى أواسط القرن التاسع عشر تقع ، وترتبط أساسا بأواسط أوربا : ألمانيا بالدرجة الأولى ثم فرنسا ٠ ذلك عصر الثورات والاضطرابات السياسية التاريخية فى القارة ، فكان خروج يهودى نشيط حمل الى الولايات المتحدة نحو ربع المليون : فالمقدر أن نورتى ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ قذفتا اليها بنحو ٢٣٠ ألف يهودى ٠

أما المرحلة الثالثة ففترة ممدودة حول دورة القرن من ١٨٨٥ الى ١٩١٤ ، وكان قطبها المركزى فى الارسال الروسيا القيصرية يحف به هالة تشمل النمسا — المجر ورومانيا ٠ وقد دخل الولايات المتحدة من اليهود بين ١٨٨١ ، ١٩١٠ زهاء ١ر٥٦٢ر٠٠٠ ، منهم ١ر١١٩ر٠٠٠ من الروسيا ، ٢٨١ ألفا من النمسا — المجر، ٦٧ ألفا من رومانيا ٠ وفيما بين ١٩٠٠،١٩١٣ فقط هاجر من الروسيا ٩٦٤ ألف يهودى الى الولايات المتحدة ، ٦٠ ألفا الى كندا ٠

ذلك اذن تيار كثيف عرم من وسط وشرق أوربا انفجر مع استمرار الاضطهاد والغربة من جهة ومع فتح باب الهجرة الى الولايات من جهة أخرى ، انفجر ليستقر فى أمريكا الشمالية منذ العشرينات من القرن الحالى وليصبح فيما بعد أضخم تجمع لليهود على وجه الأرض على وجه الاطلاق ٠ كذلك انطلقت الهجرة الى أمريكا اللاتينية بأغلب وحداتها السياسية خاصة البرازيل والأرجنتين ٠

أما فى العالم القديم فقد كانت كثافة وقوة الهجرة أقل بكثير ، وكانت استراليا وجنوب افريقيا هما القطبين الأساسيين فيها. غير أننا لاينبغى أن ننسى المجال السوفيتى حيث هجر بعض من يهود الروسيا الى الشرق الأقصى السوفيتى وأقيمت لهم جمهورية خاصة هى جمهورية بيروبيدجان Birobidjan اليهودية فى حوض الآمور .
ومحصلة كل هذه الهجرات أن الانتشار الحديث توزع فى كل الاتجاهات ، أى على اطار دائرى حول النواة التاريخية القديمة ، ولكن مركز ثقله المطلق كان دائما صوب الغرب الأقصى استمرارا لاتجاه المحور الأسى فى كل حركة الشتات اليهودى عبر التاريخ .

بعد هذا تمثل الفترة النازية فى ألمانيا الهتلرية دورة شتات جديدة . فقد أدى الاضطهاد النازى لليهود ، الذى وصل الى قمته فى عمليات الابادة الجماعية التى يقدر البعض جملة حصادها ان خطأ أو صوابا وان حقا أو مبالغة بنحو خمسة ملايين يهودى ، أدى هذا الى حركة خروج أو بالأحرى هروب من الرايخ وأوربا الوسطى بعامة . واذا كانت هذه الحركة قد جمعت كثيرا من يهود أوربا فى فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية ، فان الجزء الأكبر منها اتجه الى العالم الجديد خاصة الولايات المتحدة . فكانت عملية تفريغ ليهود وسط أوربا وتكثيف ليهود الولايات المتحدة ، كما كانت بداية عملية أو جريمة زرع اسرائيل.

وهذه الجريمة الاخيرة نفسها هى دورة جديدة في — ماذا نقول؟ — شتات اليهود ، غير انها اختزلت وكثفت كل تاريخ اليهود فى الاضطهاد

وعكسته على عرب فلسطين الشرعيين . انها الدورة الصهيونية التى قامت بعملية «اسقاط» على العرب لكل تجربة يهود الشتات من ابادة وطرد وخروج ابتداء من الاسر البابلى حتى ضد السامية النازية .ومع اغتصاب فلسطين ، الذى تسميه الصهيونية بالكذب وللسخرية المريرة «حرب الاستقلال» « والعودة الى أرض الميعاد » (!) ، تشععت تيارات وموجات الهجرة نحو بؤرة واحدة وجديدة .

من بين هـذه التيارات كان التيار الاوربى هو السائد فى بداية صنع اسرائيل ، ثم تحول الى آســـيا ، وبعدها الى افريقيـا على الترتيب . ولما كان هذان المصدران الاخيران يقع أغلبهما في العـالم العربى ، بينما طرد عرب فلسطين الى البلاد العربية المجاورة ، فقد وصـل السفه الاسرائيلى الصـهيونى الى حد الزعم الفاجر بان العمليـة كلها ليست الا عملية « تبادل سكان » ! غير أن المستقبل القريب جدير بأن يثبت أن اسرائيل لن تكون الا مجرد مرحلة فى رحلة الشـتات التاريخية مجرد جملة اعتراضية في تاريخ فلسطين ، وقريب هو لاشك « الخروج » الجديد ...

طوائف ثلاث

ونستطيع الآن بعد أن انتهينا من ديناميكية اليهود عبر التاريخ أن ننظر نظرة عامة الى صورتهم الاستاتيكية الحالية كما تتمثل فى التصنيف الأولى لفئاتهم الطائفية . ولقد رأينا التفرقة بين الاشكناز والسفاردى ، ولكن لابد أن نضيف اليهود الشرقيين Oriental Jews

هؤلاء لايقعون داخل أى من المجموعتين الأوليين، وانما يمثلون مجموعة قائمة بذاتها استمدت أصولها القـديمة من فلسطين رأسا أو من مراكز يهودية ثانوية . وهـم اذا كانوا — نظريا — الأقرب الى الأصول الفلسطينية ،

فانهم الأقل عددا والأدنى مرتبة فى الهيراركية اليهودية، فكل من الأشكناز والسفارديم ينظر اليهم نظرة احتقار وازدراء بلا مواربة ·

أما توزيعا ، فان الأشكناز يشملون اليوم يهود غرب ووسط وشرق أوربا ، بالاضافة الى خلاياهم الجديدة التى انشطرت فى العالم الجديد بقارتيه ، ثم جنوب افريقيا واستراليا · ويشمل السفاردى يهود البلقان والشرق الأدنى ، كما يشمل مستعمرات وجاليات مبعثرة على شواطىء البحر المتوسط الشمالية والجنوبية ، بالاضافة أخيرا الى امتداداتهم الحديثة والمحدودة فى العالم الجديد شماله والجنوب · أما اليهود الشرقيون فاليهم تنتمى مستعمرات فى شمال افريقيا وفلسطين ، ثم مستعمراتهم فى العراق واليمن ، ثم القوقاز وايران والتركستان الروسية ، وكذلك الهند والصين ·

وبعض هذه التوزيعات يستحق شيئا من التفصيل· ففى القوقاز تنتثر شظايا اليهود الشرقيين تحت أسماء مختلفة : فثمة يهود الجبال فى داغستان من بقايا الخزر القدامى والذين يعيشون فى ثنايا الشعب اللزجى **Lesghiang** ويتكلمون لهجة فارسية ، وثمة يهود جورجيا فى تفليس خاصة ، ثم يتمم الصورة الفسيفسائية يهود الشماخة Shemakha فى أزربيجان · أما فى فلسطين ، فاذا كان اليهود المحليون قبل الاغتصاب هم من الشرقيين ، فقد جمعت الصهيونية بالهجرة بين المجموعات الرئيسية الثلاث بنسبة النصف من الأشكناز والنصف من السفارديم والشرقيين ·

توزيع اليهود في العالم

اكتملت لنا الآن فيما نأمل صـــورة هيكل التاريخ اليهودى على نحو ما ، وإن لنا أن نضع التوزيع الراهن لليهـــودية العـــالمية Judenthum تحت المهجـر ، وذلك قبل أن نتقدم لندرس انثروبولوجية اليهود جنسيا، فان لتوزيع اليهود فى ذاته ـ واليهود بالذات ـ قيمـة ودلالة انثروبولوجية حاسمة كما ســـنرى • ولعـل من الواضح الآن أن الذبذبة العنيفة ما بين نمو وتناقص هى ملمح أساسى جدا فى كيان اليهودية العالمية ، شأنها تماما شأن السيولة الجغرافية النادرة المثال فى توزيعها المكانى •

انها اذن ذبذبة مزدوجة فى الزمان والمكان ، بل لعلهما هنا جانبان لشىء واحد • الا أن الذبذبة العنيفة فى الزمان تجعل نمو اليهود فى نهاية المطاف وعلى المـدى الطويل أقرب الى الجمود والتوقف النسبى • فكلما نموا بالزيادة الطبيعية سرعان ماتحصدهم الاضطهادات فيعودون الى نقطة البدء من جديد • أما الذبذبة فى المكان فتنتهى الى تغيير جذرى ومثير فى أوطانهم الاقليمية بصورة انقلابية تماما •

ونحن نستطيع هنا أن نعرض « لقطتين » لتوزيع اليهود بين تاريخين متباعدين بما فيه الكفاية لندرك هذه الذبذبات الانقلابية : الأولى فى العقد أو العقدين الأخيرين من القرن الماضى ، والثانية فى يومنا هذا • فحوالى ١٨٨٠

وبعدها قدر عدد يهود العالم بنحو ٦ر٥ مليون نسمة ، منهم ٥ر٥ مليون فى أوربا وحدها بنسبة ٥ر٨٤٪ ، ٤٢٠ ألفا فى افريقيا بنسبة ٦ر٥٪ ، ٢٥٠ ألفا فى آسـيا بنسبة ٤٪ ، والبقية فى أمريكا واستراليا ٠

أما حوالى نهاية القرن أو دورته فقد قدر عـدد يهود العالم بنحو ٨ الى ٩ ملايين ٠ من هؤلاء كان ٦ ــ ٧ ملايين يتوزعون فى أوربا وحدها أى بنسـبة ٨٠٪ ٠ وهناك فى أوربا ، حيث التوزيع أو الكثافة أبعـد شىء عن التجانس ، كان مركز الثقل يتحدد فى دائرتين يفصل بينهما برزخ أو انخفاض عميق : دائرة فى الشرق وأخرى فى الغرب ٠ فالأولى دائرة الأساس ، وهى بالفعل دائرية شكلا ، تغطى جنوب غرب الروسـيا وجنوب دويلات البلطيق وكل بولندة (والأخيرتان كانتا تابعتين للروسيا سياسيا) ، ثم أقصى شرق المانيا حيث اشتد طفح يهود بولندة بدرجة خطيرة أثارت صيحة ضد السامية ، ثم أخيرا امبراطورية النمسا ــ المجر شمال الدانوب ٠ وحـدود الدائرة شرقا فى الروسيا قاطعة حادة بحكم القـانون الذى قصر اقامة اليهود على مناطق معينة ، وترسم قوسا من القوقاز الى البلطيق ٠

أما فى مجموعها فتزن الدائرة أكثر من ٦ مـلايين يهودى : انها ببساطة قطب اليهودية فى العالم ٠ وثقلها الطاغى هذا وحده يجعلنا نفترض لها أكثر من مصـدر تاريخى ، فليس من المعقول أن نفترض أنها اسـتمدت

كل جسمها من الدائرة الصغرى وحدها الى الغرب ، بل لابد كذلك أن نفترض المصدر الشرقى عن طريق القوقاز ، الى جانب التحول الدينى المحلى ٠ من هذه الدائرة يحتل جنوب غرب الروسيا القلب المطلق ، فكان فى الروسيا نحو ٤ ــ ٥ ملايين أى نصف يهود العالم ٠ ولكننا حين نقول الروسيا فانما نقصد معها الجزء الآكبر من بولندة الذى ضم اليها فى التقسيم السياسى (Polognerusse) والذى كان هو النواة النووية الحقة فى كل دائرة اليهود الشرقية ٠ بل يذكر البعض أن يهود بولندة وحدها كانوا يؤلفون نصف يهود العالم ٠ أما بقية التوزيع فكانت النمسا ــ المجر تلى بنحو مليونين ، ثم رومانيا بحوالى ٦٠٠ ــ ٧٠٠ ألف ٠

أما عن الدائرة الثانية فى الغرب فهى أصغر بكثير ، تنتشر فى حوض الراين بعامة وفرانكونيا والالزاس واللورين وهولندا بخاصة، وتستقطب جميعا حول مدينة فرانكفورت٠ فكان بكل ألمانيا نحو ٦٠٠ ــ ٧٠٠ ألف ، الجزء الأكبر منهم فى حدود هذه الدائرة ، وكان بهولندا ١٠٠ ألف ، وبفرنسا ٨٠ ألفا ٠ أما خارج هاتين الدائرتين فتقل أعداد وكثافات اليهود كثيرا أى كثيرا جدا : بريطانيا ١٠٠ ألف أغلبهم فى لندن ، ايطاليا ٥٠ ألفا ، أما اسكندناوة فكان اليهود ممنوعين حتى منتصف القرن تقريبا ، وفى اسبانيا لم يكن ثمة يهودى على الاطلاق منذ « الاسترداد » ٠ أما خارج أوربا فكان المقدر أن يهود الولايات المتحدة لايزيدون

حينذاك ـ رغم بداية تدفق الهجرة من الروسيا ـ لايزيدون عن نصف المليون مبعثرين فى مدنها الكبرى ، منهم ربع مليون فى نيويورك ٠

وفى ١٩٠٥ قدر عدد يهود العالم بأكثر من ١١ مليونا ، نصفهم فى الروسيا ورومانيا ، وثلثهم فى المانيا والنمسا ، والسدس فى بقية العالم ٠ ولكن أثر الهجرة الى العالم الجديد كان قد بدأ ، فان أغلب هذا السدس الأخير أو نحو ١٣٪ من مجموع اليهود كان يحتشد فى الولايات المتحدة وحدها ٠

ماذا تعنى هذه الارقام وتلك التوزيعات ؟ مهما يكن من أمر ، وبغض النظر عن التطورات الطفيفة فى التوزيع بين تلك التواريخ المتقاربة ، فان ملامح الصورة العامة واضحة ٠ فاوربا هى عمليا الوطن المطلق لليهودية العالمية ، وما يوجد خارجها ليس بالمقارنة الا شظايا ٠ وعلى مستوى النظرة الكلية يمكن ان نتصور ثلاث دوائر هى اقطاب التوزيع حتى نهاية القرن الماضى ، تقع على عروض متقاربة ولكنها تتضاءل بسرعة وبشدة أقطارا واحجاما من الشرق الى الغرب : دائرة شرق أوربا ومركزها بولندة الروسية ، ودائرة غرب اوربا ومركزها الراين وفرانكفورت ، واخيرا دائرة الولايات المتحدة ومركزها نيويورك ٠

لننظر الآن الى توزيع اليهود المعاصر لنرى الانقلاب المطلق ٠ فقد لنذكر أولا أن الصورة فى أوربا قبل النازية والحرب الثانية كانت تختلف كثيرا فى أساسياتها عن صورة نهاية القرن ، وفى نفس الوقت كانت تتشابه ٠ تتشابه من حيث انها تمثل تكثيفا تراكميا لتلك الصورة بحكم التزايد الطبيعى ، وتختلف فى أنها بدأت تعكس نتائج وآثار الهجرة الى العالم الجديد بصورة حاسمة ٠

انها باختصار تمثل مرحلة الانتقال من نمط منتصف القرن التاسع عشر الى نمط منتصف القرن العشرين ·

ففى عام ١٩٣٩ قدر يهود العالم بنحو ١٥ مليونا · (ولعل هذه أعلى قمة سجلتها ديموغرافية اليهود فى تاريخهم ، فبعدها جاءت ابادة النازية التى – وان رفضنا مبالغات وتهويل الدعايات الصهيونية – حصدت منهم لاشك عددا كبيرا) · أما عن التوزيع ، فالمقدر أنه كان بأروبا ١٠ ملايين أى الثلثان ، منهم ٣ ملايين فى الاتحاد السوفيتى ، ٣ ملايين فى دول شرق أوربا الجديدة وهى دويلات البلطيق وبولندة ، أما أمريكا فكان نصيبها ٤٫٥ من المليون ، وآسيا ثلاثة أرباع المليون ·

أما الآن – ١٩٦٦ – وبعد أن عاد اليهود الى النمو الطبيعى منذ نهاية الحرب ، فان عددهم يقدر رسميا بنحو ١٣٫٤ من المليون · والرقم – قبل أن ندخل الى تحليل جزئياته – جدير بوقفة تأمل ، فان له أكثر من مغزى · فأولا ، اذا تذكرنا عدد اليهود فى القرن الخامس الميلادى (٤ – ٧ ملايين) فان معناه أن اليهود فى ١٥٠٠ سنة لم يتضاعفوا الا مرة واحدة ، بينما كانوا قد ضاعفوا أنفسهم فى القرون الخمسة السابقة بمعدلات خيالية ! ولا تفسير لهذا الا ميكانيكية النمو والتناقص بالتناوب ، أو ميكانيكية شد الحبل المزمنة بين قوى النمو الطبيعى وقوى الاضطهاد والابادة · ثانيا ، وفى الاطار الكوكبى ، يبدو اليهود على الفور شيئا ضئيلا بالغا حد القزمية فى ديموغرافية

العالم : ١٣ر٤ من المليون من أكثر من ٣٣٠٠ مليون ، أو ٣ ــ ٤ فى الألف من سكان العالم ، وتبدو اليهودية بسهولة قوقعة دينية حفرية ضامرة ٠

والواقـــع أن اليهـودية ، وحدها من بين الأديان السماوية ، هى التى تشترك مع كثير من الديانات غـــير السماوية ، فى أنها ديانة « مقفلة أو مغلقة » ، أى تحجم عن التبشير وتجتر نفســـها أبدا ٠ واذا كـان البعض يصنف الديانات المقفلة هذه الى نوعين : ديانات«جغرافية» وديانات « عنصرية » ــ يعنى على الترتيب ديانات محليـة التوزيع قاصرة على وطن أو بيئة محدودة ، أو مـرتبطة بقوم أو عنصر بعينه ــ فان اليهود يمثلون شذوذا يكـاد يصل الى حد المتناقضة الفذة ٠

فهم قد بدأوا ديانة جغرافية وعنصرية معا ، وبصرامة قاطعة ذلك ، ولكن منذ الشتات انتشروا أيدى سبأ فى أرجاء العالم لتصبح اليهودية عالمية أو شبه عالمية بمجرد توزيعها ، وان كانت أبعد شىء عن العالمية بحجمها القزمى الضئيل ٠ كذلك فقد تخلط اليهود ــ كما ســنرى ــ وداخلهم بالتحول والتزاوج دماء عناصر شـــتى لا حصر لها ، فما عادوا عنصرا بعينه متجســـدا على الديانة ، ولا الديانة عادت مرادفة لعنصر جنسى واحـــد ٠ ومع ذلك فاليهود واليهودية ، بالسياسة والمذهبية ، تمثل عنصرية عاتية غاشمة تلخصها فى كلمة واحدة الصهيونية المعاصرة٠

والآن ، كيف يبدو نمط توزيع هذه الأقلية الدينية

العالمية ؟ الجدول الآتى ، الذى يدور حول أواخر الخمسينات وكما أورده كتـــاب « اليهودية العـــالمية World Jewry لا يعطى الا ١٢ مليونا كمجموع كلى ، ولذا فهو يقـــدم صورة رقمية قد تختلف قليلا عن صورة اليوم ، ولكنه يظل يعطى نسبا صحيحة بوجه عام •

القارة	عدد اليهود	٪
أوربا (بكل الاتحاد السوفيتى)	٣ر٤٠٠ر٠٠٠	٢٨ر٨
أمريكا الشمالية	٥ر٤٣٣ر٠٠٠	٤٥ر١
أمريكا الجنوبية	٦٣٣ر٠٠٠	٥ر٣
آسيا	١ر٨٥٥ر٠٠٠	١٥ر٤
افريقيا	٥٨٥ر٠٠٠	٤ر٩
استراليا ونيوزيلند	٦١ر٠٠٠	٠ر٥

والحقيقة الكبرى التى يكاد يضج بها الجدول هى أن نصف يهود العالم جميعا يعيشون فى العالم الجديد ، السواد الأعظم منهم فى أمريكا الشمالية التى تعنى عمليا الولايات المتحدة بالتحديد • هذا بينما لاتضم أوربا ، وهى التى كانت منذ نصف قرن حتى نهاية القرن الماضى تحتكر ٨٠٪ من يهود العالم ، لاتضم الا ما يزيد عن الربع قليلا • انقلاب كامل ، وانتقال مطلق لمركز الثقل ! وهو انتقال فى نفس الاتجاه وعلى نفس المحور التاريخى لحركة ورحلة اليهودى التائة : الى الغرب دائما •

أما آسيا وافريقيا فلا تجمعان معا الا خمس اليهودية،

وهذا أيضا شذوذ طارىء جديد لأن النسبة الكبرى منهم تتشكل من صهيونية اسرائيل الدخيلة الغاصبة ، وبغيرها لاتزيد آسيا وافريقيا عن ٧ ــ ٨٪ من يهود العالم ، بل يهوى عدد يهود آسيا الى١٣٦ ألفا فقط وتهوى نسبة آسيا الى ٢ر٥٪ لتصبح أقل من افريقيا وأقل القارات جميعا باستثناء استراليا .

أما داخل القارات ففى هذا الجدول انعكاس لأهم ملامحها بحسب أرقام « اليهودية العالمية » سابق الذكر ، علما بأن النسب المئوية تشير الى نسبة يهود كل دولة الى سكان تلك الدولة .

الدولة	عدد اليهود	٪
كندا	٢٣٣ر٠٠٠	١ر٤
الولايات المتحدة	٥ر٢٠٠ر٠٠٠	٣ر١
الأرجنتين	٣٦٠ر٠٠٠	١ر٨
البرازيل	١٢٠ر٠٠٠	٠ر٢
أوروجواى	٥٠ر٠٠٠	٢ر٠
النمسا	١١ر٨٠٠	٠ر٢
بلجيكا	٣٥ر٠٠٠	٠ر٤
هولندا	٢٦ر٠٠٠	٠ر٢
تشيكوسلوفاكيا	٢٠ر٠٠٠	٠ر٢
بريطانيا	٤٥٠ر٠٠٠	٠ر٩
فرنسا	٣٥٠ر٠٠٠	٠ر٨
بولنده	٤٥ر٠٠٠	٠ر٢

الدولة	عدد اليهود	٪
المانيا	٣٠ر٠٠٠	٠ر٠
المجر	١١٠ر٠٠٠	١ر١
ايطاليا	٣٢ر٠٠٠	٠ر٣
رومانيا	٢٢٥ر٠٠٠	١ر٣
الاتحاد السوفيتى	٢ر٠٠٠ر٠٠٠	٠ر٨
تركيا	٦٠ر٠٠٠	٠ر٢
المغرب	٢٠٠ر٠٠٠	٢ر١
الجزائر	١٣٠ر٠٠٠	١ر٤
تونس	٨٠ر٠٠٠	٢ر١
مصر	٤٠ر٠٠٠	٠ر٢
اثيوبيا	١٢ر٠٠٠	٠ر١
جنوب افريقيا	١١٠ر٠٠٠	٠ر٧
الهند	٢٥ر٤٠٠	٠ر٠
ايران	٨٠ر٠٠٠	٠ر٤
اسرائيل	١ر٧١٩ر٠٠٠	٨٩ر٢
سوريا	٥ر٠٠٠	٠ر١
لبنان	٦ر٠٠٠	٠ر٤
اليمن	٣ر٥٠٠	٠ر١
عدن	٨٠٠	٠ر١
استراليا	٥٧ر٠٠٠	٠ر٦

والجدول حافل بالحقائق المثيرة الجديرة بكل ملاحظة

وتدبر . فأولا ، كما انتقلت الصدارة من أوربا الى أمريكا الشمالية ، انتقلت من الروسيا (الاتحاد السوفيتى) الى الولايات المتحدة التى هى اليوم المعقل الأكبر لليهودية حيث تضم وحدها ٤٤٪ منها . وقد نما عدد اليهود فى الولايات المتحدة من ٤٫٠٨١٫٠٠٠ فى ١٩٢٦ الى ٤٫٤٦١٫٠٠٠ فى ١٩٣٦ ، ثم ظل بعد ذلك يرد لسنوات طوال متتابعة على أنه ٥ ملايين بحسب تقدير الأجهزة اليهودية . وكما يعلق بيرجل Bergel ، فذلك مجرد تقدير تخمينى لاشك ، وأهم من ذلك أنه مبالغ فيه على وجه اليقين ككل أرقام الأقليات . وأيا ما كان ، تظل كتلة الولايات المتحدة هى أضخم حشر يهودى فى العالم .

ثم يأتى الاتحاد السوفيتى كالثانى فى العالم بسدس مجموع اليهود أو حوالى ١٦٪ . وبهذا تكون الولايات والاتحاد هما الدائرتين الكبريين الآن فى محيط اليهودية العالمية اللتين ورثتا دائرتى شرق أوربا والراين فى القرن الماضى ، أو قل ان دائرة الراين الصغرى هاجرت وعبرت المحيط لتصبح هى مركز الثقل الطافى . ويلى الاتحاد اسرائيل الصهيونية فى فلسطيننا المحتلة لتكون الثالثة فى العالم ، وهى لا تضم من يهود العالم الا ١٣٪ .

وماذا كانت هذه هى أرقام أواخر الخمسينات ، فقد نشرت أخيرا أرقام حديثة عن تعداد اليهود فى الدول الثلاث السابقة يمكن على أساسها أن نرى تغيرا ملحوظا فى أوزانهم . فالكتاب السنوى اليهودى الأمريكى يقدر عدد يهود العالم فى أول ١٩٦٦ بنحو ١٣٫٤ من المليون

نسمة ، منهم ٥ ملايين فى الولايات المتحدة أى بنسبة ٣٧٪، ٢٫٤٨٦٫٠٠٠ فى الاتحاد السوفيتى بنسبة ١٨ ٪ ، ٢٫٢٢٩٫٠٠٠ فى اسرائيل بنسبة ١٦٪ . وبمقارنة هذه الأرقام والنسب بأرقام أواخر الخمسينات يرجح لدينا أن بعض التغييرات هى فى الحقيقة مجرد تصحيحات لأرقام تقريبية سابقة . والمهم على أية حال أن نسبة الولايات المتحدة قد انخفضت قليلا ، بينما ارتفعت نسبة الاتحاد السوفيتى ، وارتفعت نسبة اسرائيل — لا شك بالهجرة — أكثر وأكثر .

هذا اذن عن « الثلاثة الكبار » — كما يقال — فى اليهودية العالمية . ولكن ثمة بعدها دول تتدرج من حوالى نصف المليون الى ثلث المليون الى ربع المليون ، هى على الترتيب بريطانيا (½) ثم الأرجنتين وفرنسا (⅓) ثم كندا ورومانيا (¼) . ثم تلى بعد هذا ٥ دول يزيد عدد اليهود فى كل منها عن المائة ألف ، هى على الترتيب ، المغرب فالجزائر فالبرازيل فالمجر فجمهورية جنوب افريقيا ، مع ملاحظة أن الهجرة أخيرا من المغرب والجزائر قد هبطت بأعداد اليهود فيهما كثيرا جدا حتى خرجت بهما من هذه المجموعة .

من هذا التصنيف الحجمى لا يمكن الا أن نصل الى نتيجة بالغة الأهمية ان لم تكن ثورية حقا . فاذا نحن اضفنا مجموع الثلاثة الكبار لاتضحت لنا حقيقة بالغة الخطورة وهى أن ٨٫٩ مليون يهودى من ١٣ مليونا أو

نحو ٦٩٪ تحتشد جميعا فى ثلاث فقط من دول العالم
كذلك اذا نحن اعتبرنا الدول التلاث عشرة فئـة + ١٠٠
من ١٣٫٤٠٠٫٠٠٠ أى بنسبة ٧١٪ بحسب أرقام ١٩٦٦ .
كذلك اذا نحن اعتبرنا الدول الثـلاث عشرة فئة + ١٠٠
ألف لوجدناها تحتكر وحدها ١١٫٢٠٧٫٠٠٠ يهـودى من
المجموع العالى البالغ حينـذاك ١٢٫٠٣٥٫٠٠٠ أو زهاء
٩٣٪ . فما معنى هذا ؟

قد يكون اليهودى عالمى التوزيع ، بمعنى أنه لا تكاد تخلو دولة فى العالم منه ، وقد يكون توزيع اليهودية على طرف النقيض من توزيع الاسلام الجغرافى الذى ينفرد من بين الأديان بمحيط مطلق يـكاد يكون متصـــلا بلا انقطاع ، ولكن ليس صـــحيحا أن « تحت كل حجر فى العالم يهوديا » ... انما الأصح أن نقول ان توزيع اليهود العالمى توزيع رشاش متطاير فى معظمه يتحول أحيـانا الى « تراب » رمزى بحت ، بينما أن ٦٩٪ أو ٧١٪ من يهود العالم يتكدسون ككتلة من « الأحجار الضخمة » فى ٣ دول ، ٩٣٪ فى ١٣ دولة . وبينما تتراوح نسب اليهود الى عدد السكان الكلى فى دول الجاليات الكبرى (ماعدا فلسطين المحتلة) بين ٣٪ كما فى الولايات المتحدة وبين ١٪ ، تتأرجح فى بقية دول العالم حوالى ١ر. ، ٢ر. ، ٣ر. ، ٤ر.٪ فى الأعم الأغلب ، وكثيرا ما تكون أقرب الى الصفر .

أما اذا عدنا الى التوزيعات الاقليمية ، فسـنجد

الصورة أوضح ما يكون ، ولكن أيضا أشد ما يكون ثورية ، فى أوربا . فثمة دائرتان أو بالأحرى الآن نواة ضخمة ونوية ثانوية . النواة فى شرق أوربا (٣ ملايين) : الاتحاد السوفيتى بمليونين وربع المليون ، ثم رومانيا بربع المليون، والمجر بنصف ذلك . ومن الواضح أن هذه النواةتقلص ضامر لنواة القرن الماضى الثقيلة بعد أن خفت فى القلب وقلمت أطرافها فى بولنده وتشيكوسلوفاكيا وشرق المانيا والنمسا بفعل الهجرة والحرب وعمليات التصفية النازية . أما النوية (أقل من المليون) ففى بريطانيا وفرنسا اساسا ، وهى بهذا قد ورثت نوية الراين القديمة التى تبددت الآن تماما وأصبحت المانيا مثل بولنده من أقل دول أوربا يهودا . وخارج هاتين الدائرتين ينتشر اليهود فى شبه تجانس على نحو ما ، ببضعة آلاف أو عشرات الآلاف لا أكثر فى بقية واحدات القارة . وبهذا وذاك جميعا نرى أن توزيع اليهود وكثافتهم تقل سريعا فى أوربا شمال الألب من الشرق الى الغرب .

وعلى العكس من هذا انحدارهم gradient على الشاطىء الآخر من البحر المتوسط فى شمال افريقيا ، فهم يقلون عددا ونسبة كلما اتجهنا من الغرب الى الشرق ، من المغرب الى الجزائر الى تونس الى مصر . ونطاق يهود أفريقيا العربية ، الذى كان يزن قبل الخروج الأخير نحو نصف المليون ، يكاد يكون المجال اليهودى الوحيد فى القارة باستثناء الطرف الجنوبى الأقصى فى

جمهورية جنوب أفريقيا حيث جذبهم الاستعمار السكنى (١١٠ آلاف) . ولا المجالين — سيلاحظ — خارج مدارى بوضوح . أما بين المدارين فقليلة جدا هى الوحدات التى تعرف اليهود قدامى أو جددا ، وقليلة هى جدا أعداد اليهود فيها على أية حال — كاثيوبيا وبعض وحدات الاستعمار الأوربى السابق فى مثلث القارة الجنوبى .

أما فى آسيا العربية — باستثناء فلسطين المحتلة منذ قيام اسرائيل — فقد أصبح اليهود مجرد بقايا لا وزن لها فى أى مكان ، بضعة آلاف أو مئات فى بعض وحدات منها وليس كلها . أما قبل ذلك فكانت أهم تجمعاتهم فى العراق (١٠٠ ألف) واليمن (٧٠ ألفا) بينما خلت وتخلو منهم بقية الجزيرة العربية . واليوم تأتى ايران كأكبر جالية يهودية فى آسيا خارج العالم العربى . (٨٠ الفا) تليها الهند (٢٥ الفا) — أما يهود تركيا فمركزون عمليا فى اسطنبول على البر الأوربى لا الأسيوى . وربما أتت بعد ذلك جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية بجالياتها اليهودية القديمة ، وجمهورية بيروبيدجان فى الشرق الأقصى السوفيتى بمستعمرتها الجديدة . وعدا هذا فبقية آسيا « خالية » من اليهود الا من أعداد رمزية بحتة هنا وهناك .

أما فى العالم الجديد فان اليهود يتركزون أساسا فى الشمال الشرقى ، الربع الغنى ، ثم تلى نوية ثانوية فى الغرب الأوسط وولايات الهارى . أما فى الجنوب عامة

وولايات الجبال فيقلون كثيرا . وبالمثل فى أمريكا اللاتينية يتركز اليهود على السواحل الشرقية أولا ، وفى النطاق دون المدارى أو خارج المدارى ثانيا ، كما فى البرازيل والأرجنتين . ومن هذا النمط ، واذا تذكرنا معه انتقال احد مركزى ثقل اليهود فى أوربا من وسطها الى غربها ، يمكننا بسهولة أن نتصور الكتلة الكبرى من اليهودية العالمية تتجاذب كما لو مغناطيسيا نحو سواحل المحيط الأطلسى شرقية وغربية . فاذا ما أضفنا الى ذلك نمط التوزيع فى أمريكا الجنوبية ثم تركز يهود شمال افريقيا تقليديا فى المغرب ، لجاز لنا أن نقرر أن الأغلبية العظمى من يهود العالم تحف بشواطىء ذلك المحيط ، بعد أن كانت حتى القرن الماضى تتركز أساسا فى القلب القارى للعالم القديم .

طفيليات المدن

تلك بصورة عامة الخطوط العريضة في توزيع اليهود على سطح الأرض . غير اننا ننسى نصف الحقيقة اذا نحن اغفلنا خاصية نادرة وشديدة الالحاح والتواتر فى التوطن اليهودى ، وأعنى بها سكنى المدن .

فاليهود بالدرجة الاولى سكان مدن ، وسكان مدن كبرى بالدقة ، ثم هم الى ذلك سكان عواصم بالتفضيل والامتياز . وانت حين تتكلم عن يهود دولة ما فانت تتكلم في الحقيقة عن يهود العاصمة ومدينة او اثنتين الى جوارها . وهذه حقيقة طاغية وابدية طوال تاريخ اليهود قديما كان او حديثا ولا تتبلور كما تتبلور فى وقتنا هذا . والأمثلة تغنى عن الحصر ، ولعل أوضحها في الذهن المثال الامريكى .

فمدينة نيويورك الكبرى تضم وحدها أكثر من مليونين ونصف مليون يهـودى ، اى اكثر من نصف يهـود الولايات المتحـدة وما يكاد يقارب كل يهود الاتحاد السوفيتى • وهى بذلك أكبر « ارســاب » يهودى فى اى نقطة منفردة فى العالم : انها تل أبيب الكبرى ، بل انها هى اسرائيل الكبرى • وبقية يهود الولايات موزعة بين المدن الكبرى بصرامة . وتدل الدراسات السكانية في الولايات المتحدة على أن عدد اليهود فى المدن يتناسب تناسبا طرديا مع أحجامها ، فهم اقوى مايكون فى نيويورك تليها على الأرجح شــيكاغو ، بينما لا وزن لهـم مثلا فى بوسطن .

هل تريد مزيدا من الأمثلة ؟ فى كنــدا حيث كل اليهود ٢٣٣ الفا نجد ٧٧ ألفا فى تورونتو ، ٦٥ الفا فى مونتريول • فى باريس ١٧٥ ألفا أى ٥٠٪ من كل يهود فرنسا البالغين ٣٥٠ الفا . فى لندن ٢٨٠ الفا من أصل مجموع ٤٥٠ ألفا . مدينة تونس ٥٥ ألفا بينما أن دولة تونس ٨٠ ألفا . اسطنبول ٥٠ الفا فى حين أن كل يهود تركيا ٦٠ ألفا . فى جمهورية جنوب افريقيا ١١٠ آلاف ، ٥٠ ألفا منهم فى جوهانسبرج وحدها . وفى اســتراليا يتركز فى مليون ٢٥ ألفا وفى سيدنى ٢٢ ألفا من مجموع كى قدره نحو ٥٧ ألفا • وهكذا وهكذا • حتى فى فلسطين المحتلة تحول المغتصبون الدخلاء المقتلعون الى ســكان مدن : فمنذ بضع سنين كان ٧٥ر٩٪ من سكان اسرائيل يتكدسون فى المدن ، وكانت بذلك ثالثة دول العالم بعـد اسكتلندا ثم انجلترا وويلز فى درجة المدنية urbanism . والمؤكد أن هذه النسبة قد زادت منذ ذلك الوقت ، ومن المؤكد كذلك أن العالم لا يعرف دولة قزمية بهذه الدرجة

الصارخة المنحرفة من المدنية . ولكنها ببساطة « حثالة مدن » العالم انصبت واستقطبت فى دولة ..

والمعنى المباشر لهذا كله أن اليهود ، وقد رأينا أن توزيعهم الفعلى ليس عالميا بالصورة المطلقة المرسومة فى أذهاننا ، أبعد شيىء عن التوزيع « الغطائى » الشامل وانما هم أدنى الى التوزيع النقطى البحت . الصورة المجازية ليست نهر مجرة مرصعا عالميا بمستعمرات اليهود ، ولكنها يمكن أن تكون منثورا من النوى والنويات السديمية هنا وهناك . على أن هذا ان حدد مجالاتهم الجغرافية ، فانه عادة ما يجعل منهم أقليات هامة أو خطرة فى بيئاتهم المدنية تلك ، بل قد يؤلفون الأغلبية فيها أحيانا كما عرفت بالفعل بعض مدن بولندا فى القرن الماضى، مما يفسر سيطرتهم المادية والسياسية من ناحية ، ويضخم شعورهم بالذات من ناحية أخرى ، وبالتالى يفاقم من شدة التعصب ضدهم والاضطهاد من ناحية ثالثة ..

الام نرد هذه الظاهرة المميزة ـ الى غريزة « طفيلية » استغلالية فى طريقة الحياة اليهودية ، أم الى قوى ضغط خارجية ؟ يرى البعض أن قوانين العصور الوسطى حرمت على اليهود امتلاك الأرض وفرضت عليهم حياة « الجيتو » . ولكن البعض الآخر يرى أن اليهودى مرتبط بالمال والتجارة والسمسرة والربا أبدا ، وأنه يكره العمل اليدوى الشاق أو فى الخلاء ، يكره بذل الجهد

الجسمانى بعامة ، ويفضل أن يعيش بعقله لا بعضـــله brain not brawn . من هنا ــ وليس من هناك ــ يبتعد عن الزراعة أولا عن الصناعة الى حد بعيد ، ولذا لا يكثر فى المناطق الزراعية او الصناعية ويتقاطر على العكس فى المدن حيث الأعمال الحرة والمعاملات التجارية والنشاطات المالية والمصرفية .. الخ .

والواقع أنه ليس بالعالم كله مجتمع يهودى زراعى واحد يستحق الذكر ، وباستثناء بعض خلايا معزولة فى الروسيا القيصرية وبولندا القديمة لا نعرف فى التاريخ الحديث أن اليهودى ارتبط بالزراعة . وبالمثل فى التعدين والصناعة : فمن الغريب ان الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ــ على شدة تباين وتناقض مذاهبها ــ لا يعرفان يهوديا واحدا من عمال المناجم بالذات ! وعلى العكس من ذلك كله التجـــارة والمهن الحرة ، فقـــديما كانت كلمة اليهودى مرادفة لكلمة « التاجـــر » ، وحـــديثا يحتشـــد اليهود فى الوظائف الحرة كالطب والمحاماة والتجارة والمال والصحافة حتى لنجد ، على سبيل المثال ، أن نصف مجموع الأطبـــاء والمحامين فى ولاية نيويورك ــ ودورها المحورى فى الاقتصـــــاد الأمريكى تلخصه ببـــلاغة الكناية اشارة الى ناطحة السحاب المشهورة ! ــ نجد نصف هذا الساخرة « بالولاية الامبراطورية Empire State » ، المجموع من اليهود .

ومن الواضح من هذا كله أن طراز حياة اليهودى

هو الأعمال غير المنتجة والوظائف الطفيلية . ومن المحقق أن هذا سبب أصيل وعميق فى كراهية الأمم لهم ، ولعله — أكثر من التعصب الدينى البحت ربما — المصدر الأول لاضطهادهم ومقتهم . واليهودى بهذا كله قد أصبح مركبا اقتصاديا — اجتماعيا شديد الوضوح حتى ليضرب به المثل وحتى اتخذ علما ونموذجا على حالات مشابهة: كذلك مثلا يطلق على الجاليات الصينية التاجرة خارج الصين « يهود جنوب شرق آسيا » ، وكذلك يوصف الهنود فى مدن ساحل افريقيا الشرقية « بيهود شرق افريقيا » ! ومهما يكن من أمر ، فان الحقيقة تظل قائمة من أن اليهود سكان مدن أساسا ، أكاد أقول « طفيليات مدن » أساسا، وتظل لها نتائجها الاجتماعية والجسمية التى ستنعكس كما سنرى على مشكلتهم الانثروبولوجية .

مجتمع الجيتو

لقد رأينا حتى الآن أن توزيع اليهود توزيع كوزموبوليتانى أولا ، ومتروبوليتانى ثانيا ، ولكن يبقى أخيرا أن نضيق بؤرة عدستنا أكثر وأكثر لنرى الخلية النهائية والأساسية فى توزيع اليهود . انها الجيتو ghetto ، حى اليهود أو معزلهم فى المدينة ! فطوال عصور التاريخ ، وفى كل البلاد والأقاليم ، ارتبط اليهود كقاعدة بلا استثناء بالعزلة المسكنية فى حى خاص من

المدينة : الجيتو كما يقال له فى كثير من بلاد أوربا وامريكا، أو حارة اليهود فى ألمانيا Judengasse وكما نقول نحن فى مصر ، وهو اليوديريا فى اسبانيا الوسيطة Juderia ، أو هو الملة mellah كما يقال فى مدن المغرب . العربى ، أو القاع قاع اليهود كما فى مدن اليمن .

وكثيرا ما كانت هذه الوحدة الخلوية اليهودية تغلف بحائط خاص داخل المدينة ، وأحيانا كان الحى برمته يقام خارج أسوار المدينة الأم ذاتها امعانا فى العزل . وفى الغالب الأعم يؤلف حى اليهود قطاعا من الأحياء الفقيرة المنحطة من المدينة ، ويكفى فى هذا الصدد أن نذكر كمجرد مثال حى ستينى وهوايتشابل Stepney Whitechapel فى الايست اند نطاق الفقر الشهير فى شرق لندن . ومع ذلك فقد كان أغنياء اليهود يتعدون هذا الحصار ليعيشوا فى الأحياء الراقية غير اليهودية ، كما أن تطور الحياة الاجتماعية يقلل الآن كثيرا من صرامة عزلة الجيتو .

ومع ذلك وعلى الفور نفهم أن العزل السكنى residential segregation هو قانون اليهودى فى المدينة . وكثيرا ما يرتد هذا العزل الى قوانين الدول والشعوب التى يعيش اليهود بين ظهرانيها، يفرضونه بالقوة على اليهود تباعدا عنهم واستعلاء عليهم كفئة من المنبوذين أو الباريا pariah كما يعبر ماكس فيبر ، وكذلك احكاما للرقابة عليهم وحصرا لاخطارهم . ولكن كثيرا أيضا مايرجع هذا الى صنع اليهود أنفسهم ، سعيا منهم كاقلية مسحوقة

الى التركز والاحتشاد فى نقطة واحدة ضمانا للحماية فى حظيرة واحدة . لقد بدأ اليهود رحلا فى عصر التوراة ، وظلوا رحلا فى عالم الشتات ، وككل قطعان الرحل أبوا الا ان يعيشوا فى حظائر مسورة داخل مدن الشتات ..

الأصل الجنسى لليهود

حتى الآن لم نعرض الا لتاريخ اليهود عبر الزمان ولتوزيعهم فى المكان ، دون أن نتعرض للجانب الانثروبولوجى البحت أصلا وجنسا . وقد آن لنا أن نسائل أنفسنا : من هم اليهود وأين يقعون فى العائلة البشرية ؟ ما العلاقة بين يهود التوراة ويهود اليوم ، والى أى مدى ينتسب يهود القرن العشرين بعد الميلاد الى بنى اسرائيل القرن العشرين قبل الميلاد ؟ وثمة علامات استفهام أخرى تنبع بالضرورة من تلك : هل ثمة من نقاوة جنسية يمتاز بها اليهود ؟ ما مدى الصحة فى القول بأنهم والعرب « أبناء عمومة » ؟ على هذه الاسئلة يتوقف كثير من المزاعم والادعاءات السياسية ، وعلى اجاباتها يتوقف الرد عليها وتفنيدها .

والواقع أننا ينبغى أن نلتفت بوعى الى أن هناك علاقة حتمية بين الدراسة الانثروبولوجية الصرفة وبين الجانب السياسى كما يتمثل فى الاطماع السياسية ، كما ينبغى أن ندرك أن الصهيونية السياسية تسخر الأبحاث الانثروبولوجية وترتب نتائجها مسبقا بحيث تخدم

دعاواهم الاستعمارية فى فلسطين ، وصميم القضية أنهم ، اذ يبحثون عن مبرر من الجنس للعودة الى « أرض الميعاد » يشرع اغتصابهم لفلسطيننا العربية ، يركزون بؤرتهم على « النقاوة الجنسية » لليهود ، بمعنى أنهم بعد أن يخرجوا ببنى اسرائيل من فلسطين الى الشتات يلحون فى أنهم ظلوا نقاة بمنأى عن الاختلاط الدموى مع الشعوب التى انتشروا بينها (الجوبيم كما يسميهم اليهود ، أو الجنتيل Gentiles كما يسمون هم أنفسهم ، أو « الأمم » كما نقول نحن العرب) ، وأن يهود اليوم أينما كانوا هم بذلك النسل المباشر لبنى اسرائيل التوراة ، ومن ثم فهم فى آن واحد مجموعة جنسية واحدة ، وقومية تاريخية واحدة ، مثلما هم طائفة دينية واحدة • ومن ذلك جميعا يخلصون، لا الى تدعيم أسطورة « الشعب المختار » ، الشعب النقى الخالص فحسب ، وانما كذلك وفى الدرجة الأولى الى تدعيم حق العودة المزعوم واغتصاب فلسطين •

بهذا تصبح قضية النقاوة الجنسية قضية محورية فى المناقشة بالضرورة • والحقيقة أن فكرة النقاوة هذه منتشرة وشائعة الى حد غير عادى ، لا فى التقاليد الدارجة عند رجل الشارع الأوربى فحسب ، ولكن حتى بين بعض من علماء الأجناس أيضا ـ لا شك لاعتمادهم على كتابات اليهود أنفسهم عن أنفسهم ، وهى الكتابات التى تبدأ من فكرة قبلية مسبقة موجهة الى أهداف بعيدة غير موضوعية • ولكن هناك ـ لحسن حظ العلم ـ من وقف

طويلا عند المشكلة باستقلال وموضوعية ، وأثبت أن دعوة النقاوة أبعد شيء عن الحقيقة والواقع •

وبهذا نكون ازاء مدرستين أو اتجاهين : اتجاه يرى اليهود متميزين مختلفين فى صفاتهم الجنسية عن السكان المحيطين مهما وأنى كانوا ، وبالتالى يؤلفون عبر العالم وحدة جنسية أو نمطا اثنولوجيا متفردا بارز الوضوح • واتجاه آخر يراهم صورة مقربة من السكان المحيطين فى كل مكان وانعكاسا لتركيبهم وتكوينهم الجنسى ، ومن ثم لا يؤلفون الا وحدة دينية لا جنسية أو جينية • وبين الأنثربولوجيين ، يمكن أن نتخذ كون Coon رمزا بدرجة أو بأخرى للاتجاه الاول ، بينما يقف ربلى Ripley علما على الاتجاه الثانى •

ونحن هنا سندير مناقشتنا بالفعل حول هذه الفكرة الفاشية فكرة النقاوة ، فنبدأ أولا باعادة تركيب الصورة والأصل الجنسى ليهود التوراة فى فلسطين كنمط اثنولوجى محدد ، ثم نتتبع الصفات والملامح التشريحية والجسمية لليهود فى المهجر والشتات لنرى الى أى حد تتفق مع ذلك النمط الابوى الاصلى القديم • وفى هذا المجال سنحاول أن نعزل أولا تلك الصفات والملامح التى تتكيف بالبيئة طبيعية أو اجتماعية بحسبانها عناصر مكتسبة لا تكشف أصلا أو عرقا ، فلا يبقى بعدها فى البؤرة الا الصفات الوراثية الدفينة الحقة التى يمكن لها وحدها أن تقرر وتحدد مسافة الخلف أو القرب بين يهود

التوراة ويهود اليوم ، ومن ثم مدى النقاوة فالاستمرارية الجنسية بينهما • وبذلك كله نستطيع أن نحدد موقفنا من النظريتين الأساسيتين نظرية النقاوة ونظرية الاختلاط •

الاجماع بين الانترويولوجيين كامل على آن يهـــود عصر التوراة فى فلسطين هم مجموعة سامية من ســلالة البحر المتوسط بصفاتها التى نعرف ونرى اليوم من سمرة فى الشعر وتوسط فى القامة وطول الى توسط فى الرأس وقد اختلط يهود بنى اسرائيل فى فلسطين مع الجمــاعات الأخرى السابقة لها واللاحقة بها من كنعانيين وعموريين وفلسطينيين ، وتمثلوا كثيرا من دمائهم وابتلعوا أعــدادا منهم حتى أصبحوا هم أنفسهم مجموعة مركبة عبرية بعامة ولكن تلك الجماعات نفسها لم تكن لتخرج عن نفس السلالة الجنسية القاعدية المتوسطية ، ومن ثم لم يغير الاختــلاط معها النمط الاساسى لليهود فى قليل أو كثير •

والأدلة المباشرة لدينا محدودة ولكنها مقنعة • فثمة قليل من الجماجم عثر عليها فى فلسطين وخارجها تعود الى عصر سليمان وبعده ، وتشير الى سلالة البحر المتوســط مع قلة نادرة من حالات عرض الرأس • وأهم من ذلك رسوم وتماثيل قدماء المصريين والبابليين التى تحـــدد كل الجماعات والعناصر التى ذكرنا ومن بينها يهود فلسطين الأوائل التى لا تختلف عن ملامح العموريين والساميين • فبينما يبدو الفلسطينيون كالأوربيين من ســلالة البحر المتوسط ببشرة فاتحة اللون ، يبـــدو العموريون طوال

الوجوه ، ببشرة مصفرة وأنوف محدبة ، ويبدو الساميون
ـ الذين يشملون لاشك الكنعانيين ـ بجباه مائلة وأنوف
مبالغ فيها كأنوف العرب والعراقيين اليوم • وعلى هذا
يمكن القول ان يهود فلسطين أيام داود كانوا سمرا من
سلالة البحر المتوسط ، على عدة أنماط ، واحد منها على
الأقل طويل الوجه أقنى الأنف • واذا أضفنا دلالة التوراة
فيمكن أن نردف قصر القامة ، ففى التوراة يصف سفر
الاعداد الاسرائيليين بالمقارنة الى العموريين أبناء أناك بأنهم
«as grasshoppers in their own sight»

ويعنينا هنا أن نقف قليلا عند عنصرين بعينهما وهم
العموريون والحيثيون فثمة نظرية قديمة كانت ترى فى
العموريين (الشعب الأحمر) عرقا « نورديا » أشقر ،
وكانت ترد ما فى يهود اليوم من شقرة اليهم • ويبدو أن
أصل هذه النظرية يرقى الى مؤرخ الشرق القديم سايس
Sayce وثمة نظرية قديمة كذلك كانت تعد الحيثيين من
الأرمينيين Armenoids عراض الرؤوس ، واليهم كانت
ترجع عامل عرض الرأس وتحدب الأنف فى يهود اليوم •
ولعل أول من روج لهذه النظرية هو ينسن Jensen

وهاتان النظريتان اللتان كان هادون من أنصارهما
يمكن الترتيب على أساسهما للزعم بأن اليهود يبدأون فى
موطنهم الأول وهم مختلطون ويمثلون أكثر من نوع أو
نمط جنسى محليا ، وبالتالى يمكن على أساسهما تفسير
اختلافات الصفات الجنسية ليهود اليوم داخل حدود نظرية
النقاوة الجنسية • غير أن كون يثبت خطأ النظريتين نهائيا

فلم يكن العموريون شقرا أو حمرا بل صفرا ، ولا كان الحثيون أرمينيين بصـــورة ما ، بل ليس هناك دليل تاريخى على اختلاط هام لليهود بهم ٠

لنحاول الآن أن نبحث عن يهود معـــاصرين يمكن اعتبارهم بغير شكوك اســتمرارا نقيا لبنى اسرائيل عصر التوراة حتى نقارن بين الطرفين ٠ ليس بالعالم اليـــوم مجتمع يهودى واحد أفلت من الاختلاط البيولوجى مع غيره من المجتمعات اليهودية منذ أولى مراحل نشأتها ٠ ولهــذا السبب لسنا نستطيع أن نفترض أن أى جماعة من اليهود الشرقيين أو غير الشرقيين تمثل تمثيلا صـــــادقا يهود فلسطين أيام المسيح ٠ ولكن لعل السامريين هم المجموعة الوحيدة من اليهود التى يتفق الجميع على أنهـــا ظلت فى فلسطين طوال التاريخ حتى يومنـــا هذا فى عزلة كاملة وتزاوج داخلى ضيق وفى نقاوة لاشك فيها ، وأنهم أكثر من أى مجموعة أخرى يمثلون العرق اليهــودى الفلسطينى الأصلى القديم ٠

هم فى قرية من قرى نابلس يقيموث ، وعـــددهم اليوم لا يعدو المائة أو المائتين ، أى أنهم يتجهون من قديم نحو الانقراض المحقق ٠ هم متوسطو الرؤوس ، الوجه طويل ضيق ، ولكن القامة أطول من المألوف المعروف عن اليهود ، كما يبدون نسبة من اللون الفاتح أكبر من المعهود فى سلالة البحر المتوسط ، ولو أن السمرة تظل سائدة٠ وبالنسبة ليهود فلسطين بعامة في أوائل هذا القرن ــ أى

قبل هجرة الصهيونية ـ فالقـامة قصـيرة ، والرأس متوسط والوجه ضيق كثيرا ، والانف الاقنى يسود بين نحو ٨٠٪ من العينة المدروسة ٠ أما الشقرة فلا وجود لهـا ٠

صفات اليهود الجسمية

لعل الصورة الجسمية لليهـودى القديم ، يهودى فلسطين قبل المسيح ، قد اتضحت معالمها العامة لنا الآن٠ ونستطيع اذن أن ننطلق فى جولتنا حول العالم لنقـارن اليها صفات يهود اليوم ٠ ولنبدأ ببعض الصـفات والملامح الأكثر شيوعا فى التصـور الدارج عن اليهـود ، ولكن الأقل مغزى فى الدلالة الانثروبولوجية ، لنبدأ بالقـامة وما يتصل بها من محيط الصدر ، ثم بملامح الوجه عامة والأنف خاصة ٠

من الشائع جدا عن اليهودى أنه قصـير القـامة ، ان لم يكن حقا كالقزم أحيانا ٠ وهـذا صحيح علميا ـ أى بالدقة كان ـ الى حـد كبير ٠ فالدراسـات المترية تظهره فى أغلب الحالات فى كل الدنيا أقصر من غير اليهود بضع بوصات تزيد أو تقل فقط بحسب طول القامة السائد حوله ٠ وفى المتوسط لاتتعدى تلك القـامة عند اليهودى الناضج قامة صبى فى السادسة عشرة من الجنتيل الأمريكى ٠ وحيث ترتفع نسبة اليهود عدديا ـ كما كانت

الجال فى بولندة فى القرن الماضى ـ يخفضون بوجودهم من مستوى أو متوسط القامة العام بنسبة وجودهم وبنسبة طول الجنتيل • ولا تكاد تعرف الانثروبولوجيا اسـتثناء لهذه القاعدة الا حالات نادرة : ففى يهود التركسـتان تتساوى القامة مع السـكان المحيطين من التاجيك ، وفى أوديسا وريجا وجد اليهود أطول من المسيحيين ، وفى تونس وجدوا أطول من العرب ، وقد رأينـــا منذ قليــل أن السامريين ليسوا أطول من جيرانهم الفلسطينيين فحسب ولكنهم يعدون طوال القامة عن أى مستوى •

هل يمكن أن يعد قصر القامة اذن صـفة جنسية أصيلة من المركب اليهودى ؟ كلا على الأرجح ، رغـم ذلك ورغم اشارة التوراة الى الظاهرة • فمن ناحيـة لا يمكن أن نتكلم عن وحدة النمط اليهودى من حيث القامة ، لأنه برغم سيادة القصر فان هنـــاك تفاوتا محسوسـا بين مجتمعات اليهود المختلفة ، وكذلك يتراوح أشكناز أوربا فيما بينهم كثيرا • ومن ناحية آخرى فالثابت الآن علميا بلا مراء أن القامة صفة جسمية مرنة مطاطة تتكيف بالبيئة الطبيعية والاجتماعية ، بالصحة والتغذية ، وأنها صـــفة مكتسبة وظاهرة اجتماعية مثلما هى ، أو أكثر مما هى ، وراثية جامدة • وأغلب الظن أن قصر قامة اليهود هووليد الجيتو وحياة التوتر والخوف من الاضطهاد • كما أن من المعتقد أن تفشى عادة الزواج المبكر جدا بين اليهـود حتى وقت قريب كانت مسئولة عن نوع من الانحطاط الجسمى

انعكس على القامة ٠ أما حين وحيث تزول هذه الظروف البيئية فان قامة اليهودى تنطلق لتقترب من قامة الجنتيل كما فى حى الوست اند الراقى بلندن وكما حدث حديثا فى الولايات المتحدة ٠ ومن قبل كان اليهود أطول قامة فى أو كرانيا الخصبة منهم فى ليتوانيا الفقيرة المجدبة ٠

عدا القامة الضئيلة ، يوصف اليهودى عادة بضيق الصدر ٠ والأدلة العلمية تؤكد مرة أخرى الفكرة الدارجة فتجد محيط الصدر أقل كثيرا من المتوسط العام عند الجنتيل ، وسعة الرئتين ضئيلة والقفص الصدرى مسحوبا مسطحا ٠ والقياسات من مختلف أجزاء العالم لاتختلف فى هذا الصدد ٠ ولكن مرة أخرى نعود فنجد أن هذه نتيجة طبيعية لنمط الحياة وللبيئة الى جانب الحرفة ٠ فالحرف الداخلية التى فرضها الجيتو على اليهود ، لا سيما الحرف اليهودية التقليدية منها كالخياطة والصياغة وصناعة الاحذية ٠٠ الخ ، ترتبط وثيقا بتلك الظاهرة ٠ ولذا فانها ــ كالقامة ــ لا يمكن أن تكون صفة جنسية أصيلة ولا دليلا قاطعا له وزنه فى تحديد الأصول الوراثية لليهود ٠ وفى الولايات المتحدة حيث تحسنت بيئة اليهود جدا تختفى الظاهرة تماما ٠

وننتقل بعد هذا الى جانب يبدو على السطح أكثر خطورة ومغزى ، ولعله أكثر ما يقال عن اليهود شيوعا عند الرجل العادى ، وأعنى به ملامح الوجه أولا والنظرة العامة أو « السحنة » ثانيا ٠ فالشائع الدارج أن اليهودى يتصف

تقليديا بالسمرة (والمقصود هنا سمرة الشعر والعين لا البشرة ، أى برونت) ، ثم بالأنف الأقنى الضخم ، والعيون المنتفخة ، والشفاة الممتلئة . أما عن النظرة العامة فالمقول الشائع والمتداول هو أن هناك « نظرة » يهودية » أو « سحنة يهودية » بطريقة ما تميز اليهودى لأول وهلة ويعرفها هو جيدا عن نفسه كما يعرفها الجنتيل . فما مدى صحة هذه الافكار الدارجة ، وما قيمتها فى تحديد نقاوة وأصل اليهود ؟

أما أن اليهودى أسمر الشعر والعين ، فحقيقة تؤكدها الدراسة العلمية ، ولكن لاكقاعدة عامة مطلقة وانما كاتجاه سائد . وفى أجزاء كثيرة من أوربا وجد أن نسبة السمر بين اليهود تصل أحيانا الى ثلثى العينة المدروسة ، وأن هذه النسبة تعادل ضعفى مثيلتها بين الجنتيل . (ونسبة السمرة دائما أعلى ــ بالمناسبة ــ بين اليهوديات منها بين اليهود) ومع ذلك ففى مناطق معينة من بولندا وجد أن نحوا من ثلث الى خمسى اليهود ذوو شعر فاتح . كذلك فمن الثابت أن هناك عنصرا أوضح من الشقرة بين اليهود الشرقيين ، يجنح بهم الى اللون الأصهب rufous وحتى بين السفارديم هناك كثير من الشقر . وتبدو الشقرة واضحة كذلك فى يهود الالزاس واللورين ، وأوضح وأوضح فى يهود انجلترا .

نصل من هذا الى أن سيادة السمرة بين اليهود ليست الا نصف الحقيقة ، وربما كان أهم منها أنه ليس

هناك وحدة لونية بين يهود العالم من ناحية ، ومن ناحيه أخرى أن تفاوت لون الشعر والبشرة بينهم ما بين شقرة وسمرة انما هو ظاهرة لا يمكن أن تفصل عن لون السكان المحيطين بدرجة أو بأخرى • فمن حيث الشعر والعين ، لانجد فى فلسطين عامة شقرة ما (قبل اسرائيل) بينما يبدى قلة من السامريين بعض شقرة خفيفة ، وفى العراق ودائرة القوقاز تسود السمرة ، هذا بينما فى شمال افريقيا تحدث الشقرة بنسبة ٥٪ ، ترتفع الى نسبة السدس بين سفارديم سالونيك واسطنبول ، وفى القرم ٧٥٪ سمر من البرونت والباقى من لون فاتح ، ثم بين اشكناز أوربا تهبط نسبة السمر الى ٥٥٪ وتتحدد نسبة الشقر بنحو ١٠٪ والباقى لون فاتح ، حتى اذا ما وصلنا الى يهود ليتوانيا كان ٥٥٪ من لون فاتح • فهذه اذن سلسلة تصاعدية يبدى لون اليهود فيها معامل ارتباط وثيق مع لون السكان المحيطين السائد • ويرى كون أن أشكناز أوربا قد حققوا لانفسهم توازنا ثابتا بطريقة ما فى لون الشعر والعين : ففى البلاد التى يغلب على الجنتيل فيها الشقرة أو الشقرة على السمرة نجد اليهود أميل الى السمرة نسبيا ، وفى البلاد التى تسود السمرة فيها بين الجنتيل مثل رومانيا فان اليهود تميل الى أن تكون أكثر شقرة • وسواء اتفق هذا الرأى مع معامل الارتباط الواضح فى السلسلة السابقة أو تعارض معه ، فالشىء المؤكد أن اليهود ليسبوا متجانسين لونا •

أما عن لون البشرة نفسها ، فالفروق بين اليهـــود ليست أقل حدة ، وليس ثمة نمط موحد البتة • فهم بين سفارديم البحر المتوسط والشرقيين بيض مشربون بسمرة خفيفة بعامة • وهم كذلك فى التركستان حيث يشبهون فى لونهم لون جيرانهم تاجيك الجبال مثلما يشبهونهم فى غزارة شعر الجسم • أما فى اليمن فهم ان بدوا أفتح قليلا من اليمنيين فما ذاك الا لحياتهم فى الظل بعيدا عن العمل فى الخلاء • أما فى أوربا فلا يختلف الاشكناز عن الاوربيين فى لون البشرة •

وعلى النقيض من هؤلاء اليهود البيض ، فثمة « اليهود السود » الذين يقعون خارج التقسيم الثلاثى لليهـــود الى أشكناز وسفارديم وشرقيين • من هؤلاء الفلاشة Falasha فى شمال الحبشة ، وهم الى حد كبير متزنجون Negroid ويتكلمون لغة الاجاو الكوشية القديمة • ومنهم كذلك فى افريقيا الدجاتون Daggatuns فى جنوب الصـــــحراء الكبرى • أما فى آسيا فهناك اليهود السود من التاميل فى كوتشين بجنوب غربى الهند ، وهم يسمون هنـــاك هكذا تمييزا لهم عن جيرانهم « اليهـــود البيض » الذين ينحدرون من أصل فلسطينى منذ أيام الشـتات الاولى • وربما جاز لنا أن نضيف الى نماذج اليهود السود مجموعات فى أمريكا اللاتينية من الزنوج أو الخلاسيين الذين اعتنقوا اليهودية أو اختلطوا بيهود مهاجرين •

ننتقل الآن الى الأنف • فأما الانف الاقنى المحــدب

ـ الذى ألصق باليهود واشاعه رسام الكاريكاتير حتى صار علما : « الأنف اليهودى » ـ فليس فى الحقيقة صفة يهودية . فالملاحظات الانثروبولوجية تثبت أولا أنه ليس منتشرا بين اليهود بدرجة خاصة أو غير عادية ، وأنه ثانيا منتشر بين غير اليهود بحرية وبلا حدود . فبين يهود بولنده لم تزد نسبة حدوثه عن ٩٪ من العينات ، وهى نفس نسبة البولنديين ، ولو أن النسبة ترتفع فى غاليسيا الى ٣٠٪ . وفى مدينة نيويورك لم يعثر على الأنف « اليهودى » الا بين ١٥٪ من ذكور اليهود الراشدين . أما الشكل الاكثر حدوثا بين اليهود فهو الانف المستقيم كما فى يهود شمال افريقيا ويهود العالم العربى والسفارديم . مثلا بين يهود اليمن ٦٠٪ أنوف مستقيمة ، بل وهناك نسبة من الأنف المقعر . وبين اشكناز أوربا تسجل القياسات سيادة الانف المستقيم فى حين يقل الانف المحدب عن النصف دائما . بل ان الانف المقعر ليكثر بين يهود الروسيا حيث يكثر الشكل بين السلاف الشماليين عامة . فهناك ترجح نسبة حدوث الانف المقعر نسبة الانف المحدب كثيرا ، بينما فى ليتوانيا تصل نسبة الانف المقعر الى ٥٠٪ ويختفى الأنف المحدب كلية .

ومن الناحية الاخرى ، فالانف الاقنى المحدب شائع بوفرة بين غير اليهود : وجد بين ثلث العينة فى جنوب شرق بولندا ، وهو منتشر كثيرا بين العرب والافغانيين وكثير من الاوربيين .. الخ . ونحن أقرب الى

الصحة ـ فيمـــا يرى كون ـ حين نصف الانف الاقنى « بالانف السامى » منا اذ نصفه « بالانف اليهودى » ، ولو أن هادون يرى عكس هذا تماما حيث يقـول ان تسمية الانف اليهودى بالسامى خطأ شائع وأنه فى الحقيقـة من أصل أرمينى ·

وأيا ما كان ، فالذى يميز الانف اليهودى حقا انما هو تشكل أو تشوه خاص يشمل انخفاض أو تدلى طرف الانف مع ارتفاع جناحى المنخرين حتى ليبدوان معلقين على الوجنتين ، مما يؤدى بالتالى الى ظهور قصبة الانف مرئيه بوضوح · والظاهرة ككل يمكن أن نســـمى « بالمنخره nostrility » وتقرب بروفيل الانف كثيرا من رقم « ٦ » الافرنجى مد ذيله · وهذا قد يعطى شعورا بتحدب الانف فى حين أنه مستقيم فى الواقع · ولكن يبقى بعد ذلك كله أن هذا النمط لا يوجد لدى كل اليهود أو حتى أغلبهم · وفى النتيجة فان من المستحيل أن نتكلم عن نمط أو شكل يهودى بعينه من الانف ، ولا يعرف اليهود وحدة أنفيـــة أكثر مما يعرفون الوحدة اللونية ·

تبقى العيون · الحاجبان ، اللذان يبـــدوان ثقيلين لسوادهما ، أميل عادة الى أن يقتربا بعضهما من بعض · أما العيون فبينما نجد عيونا شريطية غائرة بين اليهـــود العرب ، تسود بين أشكنازيم أوربا العيون « المائيـة » الضخمة البارزة والجفون المنتفخة الثقيلة التى ـ كما يعبر ريلى ـ تعطى شعورا اما بالحزن أو النظرة الحالمة واما بالخبث

المكتوم • على أن المهم أن ليس هناك عيون خاصة باليهود وبالمثل فان ما يقال عن امتلاء الشفاه مع بروز الشفة السفلى مدلاة أن لم تكن مقلوبة حقا ، ليس شائعا أو شرطيا بين اليهود •

يبقى الآن ما يقال عن « سحنة يهودية » بعينها يمكن بها التعرف على اليهودى • قد لا يمكن انكار وجود مثل هذه السحنة أحيانا ، ولكن المحقق علميا أنها لاتوجد عند كل اليهود ، فهي ان كانت موجودة بين بعض الاشكناز فى أوربا فانها لاتكاد تعرف فى أشكناز أمريكا ، كما أنها ليست غير معروفة تماما بين غير اليهود • ومن ثم فهى كثيرا ما تخدع الرائى فى التشخيص فيأخذ غير اليهودى على أنه يهودى واليهودى على أنه غير يهودى • واذا كانت هذه النظرة أو المسحة تتركز بطريقة ما حول العينين والانف والفم ، فان من الصعب تحديدها وقياسها •

ولكن الأهم من ذلك كله ان سحنة الوجه هذه ليست صفة جسمانية بقدر ماهى تعبير اجتماعى مكتسب من البيئة الاجتماعية ، من صنع الجيتو وحياة التشرد والاضطهاد والصراع ضد الاخطار المستمرة حتى لقد اسماها البعض « تعبير الجيتو » • انها باختصار من فعل الانتخاب الاصطناعى لا الوراثة والبيولوجيا » تثبتت عن طريق التزاوج الداخلى والانتخاب الجنسي والانتخاب الاجتماعى والمهنى • ومعنى هذا اننا اذا صادفنا هذه المسحة اليهودية فى الوجه فانما هى مجرد ارث الاضطهاد الدينى أيا كان الاصل الجنسي والسلالة العرقية ودون أن تعنى أن صاحبه من نسل بنى اسرائيل التوراة بالضرورة ».

تلك اذن مجموعة من الصفات الجسيمة المنسوبة الى اليهود أو الملاحظة فيهم ، لا تدل على الاصل العرقى ولا تحسم مشكلة . وهى ان دلت على شيء فانما تدل على انعدام أى وحدة بين يهود العالم فى تلك الصفات ، ان لم تدل حقا على تأثير بعيد المدى للسكان الذين يعيش بينهم اليهود ، أى على الاختلاط الجنسى وامتزاج الدماء . ولكننا نفضل أن نؤجل هذا الحكم ريثما نستكمل بقية صفات اليهود الجسمية . فنصل الآن الى الصفة الجنسية التى تعد محور الدراسات الأنثروبولوجية جميعا ، ترتبط مباشرة بالوراثة ولا تكاد تتأثر بالبيئة ، ويمكن أن تكون مؤشرا وثيقا الى الاصول الاولى ومقياسا ومحكا للنقاوة أو الخلط . انها لا شك شكل الرأس .

وكما رأينا فان يهود بنى اسرائيل فى فلسطين التوراة كانوا ككل الساميين المحيطين طوال الرءوس أساسا . فاذا ما وجدنا رؤوسا غير ذلك بين يهود اليوم فليس ثمة الا تفسير واحد وحيد لاسبيل الى الشك فيه وهو اختلاط الدم بعناصر غريبة . هذا مع التذكرة بأن سيادة طول الرأس نفسها بين أى مجموعة من اليهود لا تنفى عنهم بالضرورة امكانية حدوث اختلاط جنسى ما مع غيرهم من طوال الرءوس ، لان تزاوج طوال الرءوس بطوال الرءوس لا ينتج الا طوال رءوس مثلهم . فكيف اذا رصدنا شكل الرأس عند اليهود فى مسح عام ؟

من بين المجموعات الرئيسية الثلاث ، الاشكناز

والسفارديم والشرقيين ، يقع الاشكناز جميعا بين عراض الرءوس ، وأحيانا بين عراض الرءوس جـــدا · هكذا هم فى كل أوربا والعالم الجديد ابتــــداء من الفولجا حتى كاليفورنيا ، حيث تصل نسبتهم الرأسية الى مثـــل ما للالمان الجنوبيين والفرنسيين الالبيين · بل أهم من هــذا أنهم فى ذلك يشبهون السكان المحيطين محليـا ويقتربون جدا من شكل ونسبة رأسهم · فليس ثمة فارق مثـلا بين اليهود والمسيحيين بالروسيا وبولندا فى شـكل الرأس ، بينما فى منطقة القوقاز تتحول رءوسـهم الى شكل « قمع السكر » الشهير عند الارمنيين والقفقاز ، بل نجده حتى فى يهود التركستان ·

على أن كون يلاحظ أن الاشكناز فى أوربا يقلون فى نسبة عرض الرأس ـ وان يكن قليلا جدا ، درجة أو اثنتين ـ عن السكان المحيطين ، كما أن وجوههم أقل استعراضـا أو أكثر استطالة نوعا ما · ولهذا ينتهى كون الى أن اليهود قد حققوا أيضا فى مجال شكل الرأس توازنا ثابتـــا كما فعلوا فى لون الشعر · هذا عن الاشكناز ·

ولقد كانت النظرية الشائعة بعد هذا أن السفارديم على طرف النقيض مباشرة من الاشكنازيم ، أى طـــوال الرءوس جميعا · ولكن هذه المقابلة تبسيطية أكثـر ممـا ينبغى ، فحقا يغلب طول الرأس بين السفارديم ، ولـــكن منهم جماعات استعرضت رءوسهم كما فى شـمال ايطاليا حولَ تورينو وغيرها ، وربما لحقت بهم جماعات أخرى من سفارديم البلقان · ومع ذلك يمكن بصورة عامة جـــدا أن

نقبل تلك المقابلة العريضة من قبيل التبسيط الميسور •
هذا ويلاحظ أن السفارديم يعيشون جملة بين شعوب طويلة الرأس كالبربر والعرب بحيث لايمكن للتزاوج أن يغير من شكل رءوسهم وانما على العكس يؤكده • غير أن مما يجدر ذكره أن أبعاد مقاييس الرأس المطلقة فى ذاتها أقل بعامة بين هؤلاء اليهود منها بين شعوب الجوبيم المحيطة ، وأقرب بذلك ـ هكذا يقول كون ـ الى نمط يهود فلسطين التوراة أو السامرة •

يبقى اليهود الشرقيون • هؤلاء يأتون فى المنزلة بين المنزلتين أو بالاحرى يقعون فى حدود التنصيف • فجزء منهم طوال الرءوس كالسفارديم ، وهذا يشمل يهود مصر والشام واليمن والعراق وجنوب ايران • وهنا أيضا يلاحظ أن السكان المحيطين طوال الرؤوس ، الا أن أبعادهم المطلقة أى حجم الرأس أكبر نوعا بدرجة و بالاخرى من اليهود • اما الجزء الآخر فهو كالاشكناز استعرضت رءوسهم كما فى شمال العراق ومنطقة جبال القوقاز وشمال ايران ، ثم يهود التركستان الروسية بكل شظاياها ، وأخيرا اليهود القرائين فى القرم وليتوانيا • ففى كل هذه الحالات يعيش اليهود فى محيط واسع من عرض الرأس الشديد ، وفيه استعرضت رءوسهم بشدة حتى لا يختلفون عنه البتة • الا أن هناك فارقا فى شكل الوجه ـ لا الرأس ـ فهو يميل نوعا الى الاستطالة بينما هو عريض بين السكان المحيطين ، وهو فى هذا يذكر الى حد ما بوجوه يهود فلسطين التوراة والسامرة • ومع ذلك فهو أقل ميلا الى الاستطالة بين يهود

دائرة القوقاز والقرم منه بين يهود دائرة التركستان •

من هذا المسح السريع نصل اذن الى أن اليهود يقعون من حيث شكل الرأس فى مجموعتين : عراض رءوس وطوال رءوس • والمجموعة الاخيرة تشمل أغلب السفارديم ونصف الشرقيين ، أما الاولى فتضم النصـــف الآخر ــ الشرقى أو الشمالى ــ من اليهود الشرقيين بالاضافة الى كل الاشكناز• ومن الناحية العددية ، ولها هنا مغزى كبير ، تزيد مجموعة عراض الرءوس عن ٨٠ ــ ٩٠٪ على الاقل من كل يهـــود العالم ، والاقلية الضئيلة الباقية هى طوال الرءوس • ومن الناحية الجغرافية ، يتوزع عراض الرؤوس من اليهود فى مناطق سكانها عراض الرءوس ، ابتداء من وسط أوربا حتى وسط آسيا ، بينما يقيم طوالهم بين أجناس طويلة الرأس ابتداء من المغرب حتى العراق •

ومن هذا وذاك يتضح على الفور أن الاغلبية الساحقة من اليهود انما تحولت الى عرض الرأس بعملية استعراض brachycephalisation أو تأثر بالألبية أو الدينارية كما تسمى علميا Dinaricisation Alpinisation وذلك عن طريق واحد ووحيد وهو التزاوج والاختلاط الجنسى مع غير اليهود ، بينما أن الأقلية التى احتفظت بطول رأسها الأصلى لا يتحتم بالضرورة أن تكون قد أفلتت من مثل ذلك الاختلاط ، ولكنه أمر متروك فى هذه الحالة الى الأدلة التاريخية • وهذا ما ينقلنا الى قضية النقاوة الجنســـية والاختلاط ، شواهدها وأدلتها ، أبعادها ومغزاها •

نقاوة أم اختلاط:
يهود تأوربوا أم أوربيون تهودوا ؟

حسنا ، بأى مغزى يمكن أن نخرج من هذه الدراسة، وأى معنى تحمل بالنسبة لدعاوى الصهيونية السياسية وغير السياسية ؟ الشيء المحقق أن ما قد يختص ويشتهر به اليهود من « طابع » أو « سحنة » مميزة هو أمر لا ينكره العلم تماما ، ولكنه ظاهرة جزئية ليست بجامعة أو بمانعة من ناحيته ، ومن ناحية أخرى فانها برمتها ظاهرة حضارية من صنع اليهود أنفسهم ونتيجة لاحساسهم الملتهب بذاتهم طائفيا وشعورهم المتضخم بكيانهم الدينى ، وليست صفة جنسية دالة ولا تعنى البتة وحدة الاصل او نقاوة السلالة • بل على العكس من هذا تماما ، يمتاز اليهود • بمناقضة فذة وحقيقية جدا : شبه تجانس أو شبه وحدة جزئية فى السحنة والنظرة العامة ، وتنافر مطلق فى الاصل الجنسى •

ويحاول كون أن يجعل من اليهود طوال الرؤوس من السفارديم وبعض الشرقيين وحدة اثنولوجية ethnic unit قائمة بذاتها ، قد تتباين فيما بينها من منطقة الى منطقة ، ولكنها بعامة تتباين أكثر مع السكان المحيطين • وبالمثل يصور اليهود الاشكناز ومعهم بقية الشرقيين على أنهم وحدة اثنولوجية أخرى • ومع ذلك فهو يعترف بأن كل نوع أو سلالة جنسية معروفة فى أوربا يمكن بسهولة أن تلتقط من

بينُ يهود القارة ، وأن أغلب اليهود يمثلون خليطا بطريقة أو بأخرى بين عديد من تلك الانواع والسلالات • وكذلك يضيف أن من السهل جدا أن نلتقط من بين يهود الروسيا أفرادا يمتازون بالصدغ الواسع والانف العريض القصير snub وعظام الوجنة البارزة بدرجة لاتفرقهم عنجماعات الفن المغولية التى تسكن منطقة الفولجا ، بينما يوجد بين اليهود الالمان أفراد هم بكل معنى الكلمة نورديون مثاليون•

ويمكن من ناحيتنا ان نضيف على مستوى العالم متناقضات كالموزايكو تكاد تغطى كل ما نعرف بين البشر من اختلافات فى الصفات الجنسية • فثمة اليهود السود فى الحبشة وجنوب الصحراء الكبرى ، واليهود الملونون في الهند ، بل والصفر أحيانا في التركستان ، واخيرا اليهود الشقر في اوربا . او كما لاحظ دالبى Dalby في اواخر القرن الماضي هناك كل الانواع والالوان بين اليهود ــ البيض والسمر والسود . هناك اليهودى الربعة غليظ الملامح عريض الرأس من الاشكناز ، واليهودى النحيف دقيق الملامح طويل الراس من السفارديم ثمة الأنف اليهودى المحدب والأنف المقعر بين كثير من يهود الروسيا ثمة العيون اللوزية في السفارديم والمكنزة الضخمة فى الاشكنازيم والعيون المغولية المسحوبة فى بعض يهود وسط آسيا •

وبعامة فان السفارديم أشبه بعنصر البحر المتوسط والاشكناز أشبه بالصقالبة الشماليين . وفضلا عن هذا فان الدراسات السيرولوجية أثبتت تماما أن اليهود يبدون فيما بينهم معدل تفاوت كبيرا جدا في فئات الدم مما ينفى تجانس الاصل ، وأكثر من ذلك لاتبدى تلك الفئات أى علاقة بفئات الدم عند اليهود السامريين ، مما يؤكد عمق انفصالهم جنسيا عن الأصل القديم •

واضح تماما اذن أن الحديث عن وحدة جنسيته بين اليهود ككل لا محل له من حقيقة أو علم على الاطلاق ، وأن

اليهود لا يعرفون الوحدة الجنسية أكثر مما يعرفون الوحدة الجغرافية . وواضح بالتالى أن النقاوة الجنسية المزعومة لهم انما هي محض « خرافة » كما يعبر ريلى . والواقع أن هذه قضية لم تعد ، بل لم تكن قط ، موضع جدل بين العلماء . فكما قال رينان من قبل ، ان المغزى الاثنولوجى لكلمة يهود ـ على الاقل فى شرق ووسط أوربا ـ قد انتهى منذ أمد طويل . وفى نفس المعنى أكد دالبى أنه ليس ثمة بعد أى شيء كقضية جنس يهودى على الاطلاق . وكما يقول ريلى من بعد : ليس اليهود جنسا بل مجرد « ناس » بكل بساطة .

وعلى هذا الحكم الحاسم الاخير يعلق مؤلفو كتاب « نحن الاوربيين We Europeans وهم جونيان هكسلى وهادون وكارسوندرز : « ونحن نعتقد أنه على صواب . ان اليهود لا يمكن أن يصنفوا لا كأمة ولا حتى كوحدة اثنولوجية ، بل هم بالأحرى مجموعة اجتماعية ـ دينية تحمل قدرا كبيرا من عنصر البحر المتوسط والارمنى وغيرهما كثير ، وتتفاوت تفاوتا عظيما فى الصفات الجسيمة » . ثم يضيف هؤلاء الكتاب قائلين « ان اليهود المحدثين ان لم يكونوا أرمينيين فى الاعم الاغلب ، فانهم بالتأكيد يبدون من الصفات الارمينية أكثر مما يبدون من الصفات « السامية » وان النمط الجنسى الذى يميز طائفة السامريين ، وان كنا نلقاه بين اليهود المحدثين الا أنه بالتأكيد نادر بينهم » .

ومن بعد ريلى ومن بعد معلقيه أيضا يقرر هوتون

Hooton بجزم قاطع : « حقيقة هى لا شك أن اليهود مختلطون جنسيا ومن أصول طبيعة متنوعة » . وهو اذا كان يجد فيهم قدرا ما من وحدة طبيعية ونفسية وحضارية ، فما هى بوحدة جنسية تماما ولا وطنية ولا لغوية ولكن الى حد ما كل أولئك . ويؤكد أشلى مونتجيو Ashley Montagu نفس الانتهاء فيقرر على النقيض مباشرة من كون ان اليهود ليسوا وحدة انثولوجية بل ، باصطلاحه مجرد « معزولة حضارية cultural isolate

والسؤال الآن : كيف تم اختلاط أو تخليط اليهود ، وما هى الادلة والشواهد التاريخية عليه ؟ لنذكر أو لنتذكر أولا أن اليهود من أصحاب نظرية النقاوة الخرافية يحاولون بكل وسيلة اثبات العكس على أساس أن حياة العزل فى الجيتو والعداء والاضطهاد الدينى عوامل مضادة للاختلاط والتزاوج . ولكن الواقع التاريخى اليقينى يكذب هذا التصور أو التصوير تماما . كذلك فانهم يتخذون من أسماء الاشخاص اليهودية دليلا على عدم التزاوج ، فعلى سبيل المثال أسماء كوهن وكوهين ... الخ تشير الى نسل الكوهانيم أى الكوهانين Cohanim أبناء هارون وكهنة المعبد القدامى (والاسم كوهين تحريف للكلمة العربية كاهن) وهؤلاء محرم عليهم كلية أى دم غريب . ولكن الحقيقة أن هذا الاسم خرج عن حدوده الاصلية وأصبح أكثر أسماء اليهود شيوعا . ومن الناحية الاخرى ، فان أسماء يهودية أصيلة وبحتة هي اليوم من أكثر الأسماء

شيوعا بين الملايين من المسيحيين فى أوربا • فكيف حدث هذا بغير التزاوج والتحول ؟

الحق أن موقف اليهود أصحاب نظرية النقاوة ليس غير علمى فحسب ، ولكنه أيضا انتهازى ومغرض بوضوح، ولذا لا يمكن الاعتداد به فضلا عن الاعتماد عليه • ويكفى للتدليل على هذا الذى نقول أن نذكر موقفهم أيام اضطهاد النازية فى ألمانيا • فلما كان كل شىء يقاس حينذاك بالجنس النوردى والاصل الارى ، فقد كان اليهود يدعون أنهم من ذلك الجنس والاصل ليفلتوا من عقاب ولعنة السامية • أما الان بعد اغتصاب فلسطين ، فكل دعواهم أنهم ساميون لحما ودما !

ولكى نعرف أين الحقيقة فى هذا الانقلاب الانتهازى الفاضح ، يكفى أن نورد تعليق هوتون على اضطهاد ألمانيا النازية لليهود حيث يسخر قائلا ان اليهود ربما كانوا يمتلكون من الدم النوردى مثلما يمتلك الالمان أنفسهم ! ولاشك أن مما له مغزاه كذلك أن القليل من الكتاب الذين يأخذون بنظرية نقاوة اليهود الجنسية هم من دعاة النظريات العنصرية التى نبذها العلم تماما مثل هوستون ستيوارت تشمبرلن الذى يزعم أن تلك النقاوة هى سر قوتهم مثلما تجعلهم « غرباء بين كل الامم » !

التزاوج والتحول اذن حقائق لا شك فيها ، وعليها يجمع جمهرة الانثروبولوجيين ابتداء من كين الى ربلى الى كون ... الخ . فهذا كين يتكلم عن « الزيادات الضخمة من (الجنتيل) المتحولين » ، ويقول « ان الافتراض بأن اليهود ضموا قليلا أو لاشىء من المتحولين هو

افتراض لم يعد بعد مقبولا » • ويضغط مؤلفو «نحن الاوربيين» خاصة على نقطة هامة وهى أن نمو أعدادالیهود في المهجر بعد الشتات بمعدلات غير معقولة انما يرجع في جزء منه الى التحولات الضخمة الى اليهودية اما ربلي فيقـرر أن ليس ثمـة أيسر من اثبات الاختـلاط والتزاوج والتحول بين اليهود والجنتيل في أوربا وخارج اوربا .

ولقد كان هناك طريقان أساسيتان لانتشار اليهودية وتمددها : التحول الدينى سواء من الوثنية أو المسيحية ، والتزاوج والامتزاج الدموى • وللتحول شكلان رئيسيان : التحولات بالجملة ، وهى معروفة محددة تاريخيا أهمهـــا حالة الخزر والفلاشة واليهود السود من التاميل واليهـود القرائين فى طوروس •

الشكل الثانى هو التحولات الفردية المستمرة فى كل مكان وزمان • أما التزاوج فشكلاه الزواج العلنى والسرى أو العلاقات الجنسية غير الشرعية • وكتاب اليهود يصرون على ضآلة دور التحولات بعامة والتحولات الجماعية بخاصة فى انتشار اليهودية • وعلى أية حال فلا شك ان اليد العليا كانت دائما للتزاوج ، هادئا ودفينا ومزمنا • وقد ارتفع التزاوج المختلط بين اليهود والجنتيل الى نسب عالية فى فترات الهدوء وتوقف الاضطهاد ، فاذا كان الزوج يهوديا نشأ الأبناء يهـــودا ، ولكن كان يحدث أحيانا أن تنتزع ديانة الزوجة اليهودية الابناء من ديانة الأب •

في ضوء هذه الاسس العامة ، نود الان أن نستقرىء وقائع التاريخ نفسه ، ماذا تقول وكيف تحكم في قضية الاختلاط والتحول • فاذا بدأنا عرضنا التاريخي من البداية ، فسنجد ان يهود فلسطين التوراة تخلطوا في عقر دارهم مع جيرانهم من الفلسطينيين (كما تدل قصة شمشون اليهودي ودليلة الفلسطينية) ومع جيرانهم من العموريين والحيثيين (كما يشير سفر حزقيال : « أمك كانت حيثية، وعموريا كان أبوك ») • وهذا الاختلاط الجنسي كان أقوى على حواف وهوامش كتلة هضبة يهودية المفتوحة نوعا منه في قلبها الوعر المعزول • وكثيرا ما فرض على اليهود الذين اتخذوا زوجات « وثنيات » من الاجانب المحيطين أن يتركوا الوطن الى تلك السهول المجاورة • كذلك فمن الثابت ابان الاسر البابلي الذي استمر ١٤٠ عاما أن كثيرا من اليهود تخلوا عن ديانتهم القديمة •

وبوجه عام فنحن نجد منذ بداية التاريخ أن الرفض للزواج المختلط بين اليهود والجنتيل لم يكن قط جنسيا بل دينيا ، بحيث ينتهي اذا تحول الجنتيل الى اليهودية • والواقع أنه في أيام اليهودية الاولى لم يكن الزواج من غير المؤمنين ممنوعا أبدا ، كما حدث فيما بعد • هكذا يذكر المؤرخ جوزيفوس أن يهود انطاكية نجحوا في تحويل الكثيرين الى عقيدتهم وأدخلوهم مجتمعهم • وقد حدث عدد كبير للغاية من التحول الى اليهودية بلا شك في القرن

الثانى الميلادى • ومن الامثلة الهامة النساء اليهوديات اللائى تم بيعهن كاماء وأخذن الى مقاطعة الراين كزوجات لجنود الرومان ، وبعض هؤلاء الجنود هجروهن عند نقلهم الى مواقع أخرى ، فشب أبناؤهم كيهود •

والثابت أن التحول والاختلاط كانا من المظاهر المتفشية قبل العصر المسيحى مباشرة وفى قرونه الاولى • فحين تشتت اليهود فى العالم المتوسطى وجدوا أنفسهم ازاء اختيارين : اما أن يرتدوا وثنيين كجيرانهم الجدد ، واما أن يحتفظوا بديانتهم • وهناك ــ كما يقول بيرجل ــ « أصبح الكثيرون ، ربما الاغلبية ، وثنيين ، وذلك لان من بين القبائل الاثنتى عشرة عشرا « مفقودة » كما تحدثنا الروايات » • وفى حالة التحول كان اليهود يفقدون كيانهم الجنسى جنبا الى جنب مع كيانهم الدينى ، ويصبحون جزءا لايتميز عن الامة التى أقاموا بينها • أما اذا ظلوا على يهوديتهم ، فانها اذن العزلة الاجتماعية ، ومن ثم فلا تزاوج الا اذا تحول الوثنيون الى اليهودية ، وهذا بالدقة ما حدث مرارا وتكرارا لان اليهود قاموا بكثير من التبشير بنجاح عظيم عبر قرون طويلة ، وهذا ما يفسر جزئيا تنوعهم وتباينهم الجنسى • الا أن الموقف تغير بعد أن أصبحت المسيحيةالديانة الرسمية للامبراطورية الرومانية، حيث أصبح التحول الى اليهودية صعبا ، ولكن التزاوج والعلاقات غير الشرعية لم تتوقف •

أما فى العصور الوسطى حيث أصدرت المجالس الكنسيةقرارات صارمة بمنع زواج المسيحيين باليهود

كما فعل مجلسا توليدو عام ٥٣٨ ، ٥٨٩ ، ومجلس روما عام ٧٤٣ ، فان أغلب الكتاب يفسرها على أنها دليل على خطورة المدى الذى كان الزواج المختلط قد وصـــل اليه بالفعل • بل ان اضطهاد القوط الغربيين فى اسبانيا لليهود فىالقرن الخامس والسادس الميلاديين انما يرجع ـ كمايؤكد كين ـ الى نشاطهم التبشيرى الخطير والى تفشى الزواج المختلط بينهم وبين المسيحيين •

وثمة أدلة أخرى على الاختلاط والتحويل على نطاقات اقليمية كبيرة • فالســفارديم قبل خروجهم من اســبانيا كانوا قد اســتوعبوا دماء أيبيرية وغربية وبربرية كثيرة فى عروقهم • وفى شمال افريقيا من المؤكد ـ كما رأيناـ أن اليهودية كانت قوية الانتشار بين كثير من قبائل البربر قبل قدوم الاســـلام مباشرة • وفى المغرب يبدو اليهود المتكلمون بالبربرية اليوم مختلفين بشـــدة عن يهـود السفارديم المتكلمين بالاسبانية فى المدن المغربية بينما أن اليهود المتكلمين بالعربية فى نفس المدن ينحدرون من أكثر من أصل يهودى واحد أهمه بلا شك العنصر البربرى • أما فى أوربا فالأدلة التاريخية تشير بكل قوة الى أن أجداد الأشكناز اختلطوا مع أبناء غرب أوربا الى ما قبل الحروب الصليبية الأولى اختلاطا أقوى مناختلاط أجدادهم الأحداث من أبناء البلاد السلافية فى شرق القارة • فغزارة شـعر اللحية والجسم وتموج شـعر الرأس ، الى جانب عرض الرأس ، تدل على تأثير جنسى البى فرنسى أو ألمانى أكثر منها مؤثرات سلافية •

أما عن التحول ، فقد صدر كثير من التشريع الصارم ضد استخدام اليهود لخدم مسيحيين ، خشية تحولهم الى اليهودية ثم الزواج بهم • الا أن الأرجح أن هذا المنع لم يجد نفعا ، حيث نجد على سبيل المثال كبير أساقفة المجر يقرر فى عام ١٢٢٩ أن كثيرا من اليهود كانوا يعيشون حياة غير شرعية مع زوجات مسيحيات ، وأن التحولات « بالآلاف » كانت مستمرة وفضلا عن هذا ، فلم يكن القانون يتضمن حماية العبيد والأقنان من امكانية التهود والزواج من اليهود •وفى اسبانيا والبرتغال بعد الاسترداد أجبر مئات من الآلاف منااليهود على التنصر بالقوة والتحول الى المسيحية حيث ذابوا بعدها فى السكان •

أما فى عصرنا الحـــديث فتتواتر الأدلة والاحداث الثابتة التى تؤكد التزاوج والتحول على حد سواء • فمع الهجرة الى العالم الجديد تحول كثير من الهنـــود الحمر والزنوج فى أمريكا الوسطى والجنوبية الى اليهودية ـ ولا علاقة لهم جنسيا ودمويا باليهود أصلا • ومع اختفـــاء التعصـــب الدينى فى أوربا الصناعية ، وأكثر منه مـــع العلمانية المطردة ، انهارت الحواجز أمام التحول والزواج وتوسعت العلاقات غير الشرعية • واذا كانت التـــحولات الجماعية بالجملة قد قلت ، فقد زادت بصورة لافتة للنظر التحولات الفردية فى العصور الحديثة ، ويمكن أن نتخذ من بعض الاسماء الشهيرة مؤشرا فى ذلك الاتجاه : مثـــلا الشاعر هاينى والموسيقى مندلسون وغيرهمـــا من اليهود

الذين اعتنقوا المسيحية • وفى روسيا القيصرية كان حصول اليهود على المساواة المدنية رهنا بتحولهم الى المسيحية •

ومن الأدلة القاطعة بل والمثيرة على مدى اختلاط اليهود فى العصور الحديثة والوسيطة في أوربا ماكشفت عنه تجربة النازية في ألمانيا . فقد كان على المرء الذى يبغى إثبات الدم الارى فيه ان يقدم نسبا يخلو لعدة أجيال من العناصر غير الارية ، يعنى هنا اليهودية بالتحديد . ولكن المفاجاة أن التجربة كشفت ان عددا ضخما من الحالات من المواطنين الألمانيين « الى اقصى حد » ثبت ان اجدادهم وأجداد اجدادهم تجرى في عروقهم الدماء اليهودية ! ــ تماما كما تردد عن ريشار فاجنر من قبل ..

وفى العام الماضى فقط أخرج كاتب فرنسى كتابا كان له دوى كبير حيث أثبت أو حاول أن يثبت بتتبع شجرات الانساب الدقيقة لمعظم الشخصيات المسيحية البارزة من عائلات مالكة ورؤساء وزعماء ••• الخ فى العالم الغربى كيف تجرى فى عروقهم دماء يهودية بدرجة أو بأخرى ، وبالعكس أن كثيرا من اليهود المعروفين داخلتهم دماء مسيحية • أما فى الولايات المتحدة ، حيث أعظم مستعمرة لليهود اليوم ، فمن المعلومات العامة للكافة والخاصة انتشار الزيجات المختلطة ووجود أنصاف وأرباع اليهود ••• الخ ، لا سيما منذ القرن الماضى حين أصبح الزواج المدنى مباحا وقانونيا •

والواقع أن هذه النقطة الاخيرة تنقلنا الى أخرى لا تقل أهمية ومغزى • تلك أعنى ظاهرة ذوبان أو انصهار

اليهود واندماجهم أو امتصاصهم فى شعوب العالم المعاصر الحديثة assimilation ، وموقف الصهيونية السياسية منها • فالصهيونية اذ تحاول عبثا أن تجعل من اليهودية العالمية شعبا وقومية وأمة بل وجنسا مستقلا وليس مجرد طائفة دينية تقطع عبر ، وتجمع بين عشرات الشعوب والقوميات والامم والاجناس ، لا تزيف حقائق التاريخ الواقع فقط ، ولكنها تقاوم وتحارب حتمية حركة التاريخ التقدمية وتسعى الى تجميد تطور المجتمع الانساني •
فالصهيونية تعلم علم اليقين أن الاضطهاد الذى تعرض له اليهود فى أوربا الوسيطة والحديثة لا يرجع الى التعصب الدينى وحده بقدر ما يرجع الى طريقة حياة اليهود وانعزالهم وطبيعة حرفهم الابتزازية ومركب احساسهم المتضخم بأنفسهم وادعاءاتهم بالتفوق الموهوم ، وتعلم الصهيونية كذلك أن عصور الاقطاع والحكم الاوتوقراطى المطلق ومناخ الطبقية التقليدية كانت تشكل بيئة ملائمة وقوى ضاغطة ودافعة لهذا الاضطهاد بمثل ما أن هذا الاضطهاد ذاته بيئة ملائمة وقوة دافعة لليهود أنفسهم الى مزيد من الاصرار والتمسك بانعزاليتهم وانفراديتهم وتضادهم •

وهى - الصهيونية - ترى الآن أن روح الليبرالية المعاصرة السارية وتطور الوعى السياسي فى المجتمع الصناعى الحديث ومثل التسامح الدينى ان لم يكن اللامبالاة الدينية ، كلها طفرات جديدة وخطيرة «تهدد» بانتهاء اضطهاد اليهود ونهاية ضد السامية ، وبالتالى تهدد بسقوط الستار الحديدي الذى ضربه اليهود حول انفسهم

واتتفاء التضاد السادى ـ المازوكى الذى افتعلوه مع بيئاتهم ، ومن ثم تهدد بذوبانهم في شعوب الامم ثقافة ولغة بل ودينا وجنسا .

ومن هنا تصل الصهيونية في انحرافها الى حد الشذوذ الفكرى والعنصرى ، فنجدها تحاول محمومة استبقاء مناخ الاضطهاد وشبحه وتجسيد أسطورته الى الابد لتوقف تيار الذوبان الغلاب الذى يظل مع ذلك يفرض نفسه كواقع قاهر يتمثل اخطر مايتمثل في التزاوج المختلط مع غير اليهود ، وفي تحول بعض اليهود الى عقائد اخرى . ولئن كان هذا اليوم أوضح واخطر مايكون في بوتقة الولايات المتحدة، فان أوربا الغربية تعرفه ايضا بدرجة او باخرى . والخط التاريخى الذى أكد نفسه منذ البداية وهو تخلط وتهجن اليهود وذوبانهم جنسيا ، يعيد اليوم تأكيد نفسه برغم انحرافات وشعارات الصهيونية ، بل ويفرض نفسه أكثر منه في أى وقت مضى .

ولنقف هنا قليلا عند يهود الولايات المتحدة . الثابت أن اليهود حيثما حصلوا على المساواة القانونية الكاملة فى الحيثية المدنية ، كما فى الولايات ، فكثيرا ما يتزوجون من الجنتيل . فاذا أصر الطرف اليهودى على أن يغير الطرف الآخر عقيدته نشأ الابناء يهودا وظلت الاسرة يهودية . أما اذا تحول الطرف اليهودى الى المسيحية فقد يتزوج الابناء فيما بعد يهودا ويعودون بذلك الى اليهودية ، والا فان الاسرة اليهودية تنقرض فى النهاية . غير انه ليس ثمة حالة معروفة تحول فيها اليهود الى المسيحية ثم ظل الجيل الثالث يهوديا . وهكذا فان التحول الدينى يؤدى فى النهاية الى التمثل والانصهار مع المجتمع الامريكى .

والاحصائيات تدل على زيادة مطردة فى الزيجات المختلطة بين اليهود . فقد وجد أحد الباحثين الاجتماعيين

أن نسبة الزواج الداخلي بين اليهود فى مدينة نيوهافن عام ١٩٤٦ كانت ٩٧٪ ، وأن ٣٪ يتزوجون خارج الطائفة. ووجد باحث آخر أن نسبة الزواج المختلط فى نفس المدينة ارتفعت من ١ر١٪ الى ٣ر٦٪ بين ١٩٠٠ ، ١٩٤٠، أى أنها وصلت الى ضعف التقدير الاول . والواقع أن اليهود أكثر تعرضا للعلمانية المطردة اذا قورنوا بغيرهم من الأقليات الامريكية . والى جانب ذلك فانهم كمجتمع مدن أساسا يمتازون بمعدل مواليد منخفض، بل أشد انخفاضا منه بين أى مجموعة مدنية أخرى ، ولا يمكن أن يعوضوا أو يحافظوا على أعدادهم بالتزايد الطبيعي .

وفى النتيجة ـ هكذا ينتهى كاتب مثل بيرجل ـ فان يهود أمريكا لا بد أن يتناقصوا عدديا سواء على الاطلاق أو بالنسبة الى مجموع السكان . ومع تسارع واطراد العلمانية والانصهار فلا مفر لهذا التناقض من أن يشتد ويشتد . ومن هنا يمكن أن نعتبر اليهود كأقلية فى الولايات المتحدة « ظاهرة عابرة » فى نهاية المطاف ، ولا يؤخر اختفاءهم النهائى الا ضد السامية أكثر من أى عامل آخر .

لن يجدى اذن تصايح وصراخ الصهيونية العالمية شيئا ازاء حضارة العصر المتفجرة المعدية الكاسحة التى لا مكان فيها لعزلة وعقلية الجيتو ، وأين ؟ ـ فى قلب دوامة تلك الحضارة وفى عين اعصارها فى الغرب الاوربى

والامريكى ! واذا كانت العصور الوسطى هى عصر تحول غير اليهود الى اليهودية ، فان عصرنا أصبح بوضوح تام عصر تحول يهود الى غير اليهودية !

من هنا نفهم كيف أن الصهيونية « تتاجر » بالفعل فى الاضطهـاد ، تذكى ذكراه وتؤجج ناره كلمـا خبت جذوتها أو رمادها ، وتراه ضمان بقائها ، فى الوقت الذى تمثـل فيه اسرائيلهـا دولة المنتفعين بهذا الاضطهـاد . بل ان الفكرة الجذرية فى خلق اسرائيل ليست فى النهاية الا فكرة الجيتو بحذافيرها وانما على مقياس مجمع كبير . فهى رعاء موحد لاستبقاء انعزالية اليهـود على الجوبيم وتضادهم معهم : انها الجيتو دولة أو هى دولة الجيتـو . ولكن كما ذاب ويذوب الجيتو فى الخارج لن يمضى وقت طويل حتى يذوب ويزول جيتو اسرائيل الى الأبد .

وبعد ، فلقد انتهت رحلتنا عبر التـاريخ بحثا عن الأدلة والشواهد اليقينية على اختلاط وذوبان اليهـود ، فهل يمكن من محصلة هذا العرض المفصل أن نضع أيدينا على جوهر وميـكانيزم العملية كلهـا ؟ نعم ، وجغرافى يهودى بالذات ـ هنتنجتون ـ هـو الذى يضعهـا بين أيدينا ! فطوال التاريخ ـ كمـا يقول ـ نلمح ظاهـرتين أساسيتين : أعداد ضخمة من غير اليهود تدخل اليهودية، وفى نفس الوقت أعداد من اليهود لا تقل ضخامة تخرج من اليهودية .

وفى النتيجة فان جسم الطائفة ليس ثابتا جنسيا بل هو متحرك وفى تغير داخلى مستمر وفى ابتعــــاد دائم عن الأصول الأولى بحيث يتضاءل أبدا وباستمرار حجم النواة النووية الحقيقية من بنى اسرائيل التوراة فيهم حتى لتكاد تختفى وتنقرض فضلا عن أن تظل قابلة للتعرف عليهــا وتحديدها • انها عملية احلال وابدال مزمنة دائما ، معدية أحيانا ، ظاهرة ومستترة ، وئيدة ربما ولكنها أكيدة قطعا • انها تكاد تقول عملية « تغيير دم » كلية وشاملة •

وفى النتيجة يكاد يصــبح جسم اليهــــود فى آخر المطاف شيئا مختلفا انثروبولوجيا عن يهود التــوراة ان لم يكن لا علاقة له بهم تقريبا أو فى الأعم الأغلب • ويتأكد هذا كله حين نتذكر ما سبق أن ألمعنا اليه بشأن تعداد اليهود حيث بدأوا الشـــتات بأرقام هزيلة جدا ولكنهم سرعان ما بلغوا الملايين رغم كل المذابح والاضطهادات •

نستطيع اذن أن نخلص من هذا كله بثقة واطمئنان الى أن اليهـــود يتألفون من دماء مختلطة كأشد ما يكون الاختلاط • واذا كان ثمة خلاف بعد هذا ، فانمــا يدور حــول المدى والدرجة والى أى حد • هنــا نجــد رأيين أساسيين : فيرى ربلى أن اليهـــود يأخذون أينما كانوا صفات السكان الذين هم مقيمون بينهم ، وأبرز ما يتمثل هذا فى شكل الرأس ، الاســاس الانثروبولوجى الاول والجوهر ، ثم الى حد ما فى لون البشرة ، وبناء على هذا

يقبل رأى لومبروزو Lombroso القديم من أن اليهود جنسـيا آريون أكثـر منهـم سـاميين أو بتعبير آخر أنهم أوربيون تهودوا أكثر منهم يهودا تأوربوا ٠

« والى نفس المدرسة والرأى ينتمى مؤلفو « نحن الاوربيين » : « ان اليهود ـ هـكذا يؤكدون ـ من أصل مختلط ، وقد ظلوا باستمرار يزدادون اختلاطا » ٠ ثـم يضيفون « كان هنـاك دائمـا قدر معين من التزاوج بين اليهود وغير اليهود من سكان البلاد التى أقاموا فيها ٠٠٠ بحيث آن عددا من الجينات المستمدة من اليهود المهاجرين يتوزع بين مجموع السكان ، وأن المجتمعات اليهـودية أصبحت تشبه السكان المحليين فى كثير من الخصائص ٠ وبهذه الطريقة أصبح يهود افريقيا وشرق أوربا واسبانيا والبرتغال ٠٠٠ الخ مختلفين بوضوح عن بعضهم البعض فى النمط الجسمى » ٠

ويؤكد نفس الكتاب الفكرة فى موضع آخر قائلين « والنتيجة أن يهود المناطق المختلفة ليسوا متماثلين جينيا وأن السكان اليهود فى كل بلد يتداخلون ويتشابكون مع غير اليهود فى كل صفة يمكن تصورها ٠ وكلمة يهـودى صحيحة كوصف اجتماعى ـ دينى أو شبه قومى أكثر منها كتعبير اثنولوجى فى أى معنى جينى (ولو أن هذا لا يقصد به أن اليهود أمة بالمعنى المفهـوم للكلمة) ٠ وكثير من الصفات « اليهودية » هى بلا شك نتاج التقاليد والتربية

اليهودية خاصة رد الفعل ضد الضغط الخارجي والاضطهاد أكثر منه نتاج الوراثة » .

ومرة ثالثة يضغط هؤلاء المؤلفون على نفس الانتهاء فيقولون ان « مااحتفظوا به وورثوه ليس « صفات جنسية» بل تقاليد دينية واجتماعية . فاليهـود لا يؤلفون جنسا محددا وانما مجتمعا يشكل جماعة شبه قومية ذات أساس ديني قوى وتقاليد تاريخية خاصة. وانه لخطأ غير مشروع أن نتكلم عن « جنس يهودى » تماما كمـا لو تكلمنا عن جنس آرى » .

هذا عن الرأى الاول فى اليهود . أما الرأى الثانى فيمثله كون الذى يقبل تشكلهم بصفات السكان المحيطين لكنه يرى فيهـم الى جانب ذلك آثار الاصل الفلسطينى العبرى القديم بخصائصه المتوسطة ، وبخاصة فى شكل الوجه الطويل أو أبعاد أو حجم الرأس الصغير . ومن هذا المنطلق يدير كل مناقشته على أساس أن اليهود اليوم فى بيئاتهم المختلفة ليسوا مجرد جماعات من أبناء تلك البيئات تحولوا الى اليهودية ، وانما هم فى الأغلب الأعم يهود حقيقيون من أبنـــاء الشتات الفلسطينى امتزجوا دمويا بأبناء تلك البيئات الاصليين : مثلا : يهود العراق يهود حقيقيون وليســوا عراقيين تهــودوا ، يهود بخـــارى والتركستان ليسوا مجرد تاجيك أو سارت تهــودوا بــل أصلا يهود ولكن آستعرضت رؤوسهم بالاختلاط بهؤلاء ، ويهود وسط أوربا ليسوا ببساطة أوربيين تهودوا وانما

يهود تاووربوا ••• ويقـدر كون ـ كمجرد تخمين بحت
كما يعترف ـ أن نسبة عنصر البحر المتوسط الفلسطينى
الأصلى فى يهود أوربا الأشكناز قد تزيد على نصف جميع
العناصر الداخلة فى تكوينهم ، وهى بذلك أهمها •

ومن هذا كله ينتهى الى أن اليهـود « ليسوا مجرد
كومة عشوائية grob-bag توحد بينها رابطة مشتركة من
الدين بلا تماســـك بيولوجى أكثر ممـا لوحدات عفوية
كمســـتمعى الراديو أو عاملات الحياكة»! وقد يمكن أن نعد
سوقـف هنتنجتون قريبـا من موقف كون ، حيث يسمى
اليهود ـ بلغته الخاصة ـ «مجمرعة قربى Kiru » شأنهم
فى ذلك شأن البيوريتان أو الماورى أو الاغريق (كذا) •
غير اننا نرى فى هذه التشبيهات المتنافرة ما يعقد الصورة
أكثر ممايبسطها ، ويكفى أن نتخذ من كون علما على الرأى
ورمزا له •

أين تقع الحقيقة بين هذين الرأيين ـ والفارق بينهما
فارق كبير فى الدرجة يوشك أن يكون فارقا فى النوع ؟
هذا هو السؤال • المحقق أننا لا يمكن علميا أن نستبعد
من بعض من يهود العالم نسبة ما من الاصل الفلسطينى
القديم • ولكن من المحقق أيضا أن تقدير كون وتصويره
يبالغ بعامة فى تلك النسبة • فالملاحظ أولا أن الفروق
الجسمية التى يسجلها بين اليهود وجيرانهم ضئيلة غالبا
وواهية جدا أحيانا • وثانيـا وأهم من ذلك أنه ما دامت
الدماء الاجنبية الغريبة قد غزت اليهود وداخلتهم ـ حتى

ولو كانوا من أصل فلسطينى قـــديم ـ الى الحـد الذى يقربهم ـ على الاقل ـ من هؤلاء الجيران ، فقد ابتعـدوا وانفصلوا تماما عن ذلك الاصل السحيق .

وليس من المتصور ـ أليس كذلك ؟ ـ غير هذا بعد نحـــو ألفى سنة من التشتت والاختـلاط ، لا سيما اذا تذكرنا ـ وهو اعتبار هام للغـــاية ـ أن كل قوة يهود الشتات حين خرجت من فلسطين بعد هدم الهيكل الثانى لم تزد عن ٤٠ ألفا ! وهذا الرقم وحده يكفى ليوحى ، رغم كل قيود العزل والاضطهاد ، بأن يهود الشتات الاصلاء قد ذابوا وانصهروا وضاعوا فى محيط المهجر كقطرة فى بحر، وأن يهود العـــالم اليوم فى سوادهم الأعظم هـم أجانب متحولون أكثر منهم يهودا متجولين ...

ماذا يتبقى فيهم اذن من بنى اسرائيل التوراة أو من بنى آسرائيل التوراة فيهم ؟ ان من يمكن أن يعد منهم من نسل بنى اسرائيل التوراة حقا ومبـاشرة لا يزيدون على نسبة بالغة الضآلة الى أقصى حد . مثـلا فى أواخر القرن الماضى يجد الانثروبولوجى المخضرم المعروف فيلكس فون لوشان Von Luschan أنه « من بين يهودنا المحدثين نحو ٥٠٪ عراض رؤوس ، ١١٪ ذوو بشرة بيضاء ، وما لا يزيد عن ٥٪ يتفقون مع ماعرفنا أنه النمط السـامى القديم ». وهذا يتفق تماما مع ما تؤكده دراسة حديثة جدا قام بها فى العام الاخير فقط أنثروبولوجى بريطانى هو جيمس فنتون علىيهود اسرائيل توصل فيها الى أن ٩٥٪ من اليهود

ليسوا من بنى اسرائيل التوراة، وانما هم أجانب متحولون أو مختلطون ·

ولئن صح هذا ـ ولعله صحيح ، وهو بالتأكيد أقرب الى الصحة والمنطق من تخمينات كون ـ فمعناه أن الصلة الجنسية والجينية بين يهود اليوم ويهود التوراة منبتة وفاقدة تماما من الناحية العملية ، وأنهم بالفعل أوربيون سلاف أو آريون أكثر منهم ساميين · وهذا يصدق على الأشكنازيم فى أوربا ، وعلى امتدادهم الامريكى الذى زاد اختلاطه فى البوتقة الامريكية ، أكثر منه على أية مجموعة أخرى من اليهود ، مع ملاحظة أنهم ـ الأشكنازيم ـ هم السواد الأعظم من يهود العالم عدديا ·

والخلاصة الموضوعية أن يهود العالم اليوم مختلطون في جملتهم اختلاطا بعد بهم عن اى أصول اسرائيلية فلسطينية قديمة حتى لم تعد هذه تمثل في تكوينهم الا قطرة في محيط . وإذا كان ثمة تحفظ ما ، فهو أن هناك مراحل ودرجات من هذا التخليط ، فبعض المجتمعات اليهودية كيهود التركستان اقل تهجنا وتخلطا والبعض أكثر كالاشكنازيم . غير أن الحقيقة الحاسمة والفاصلة هى أن الاقل تخليطا انما يمثلون عدديا نسبة بالغة الضآلة من مجموع اليهودية العالمية ، بينما أن المخلطين تماما والذين ابتعدوا جدا أو كلية عن الاصول الاولى يشكلون الاغلبية الساحقة منهم . ومن هنا فلاجناح علينا إذا نحن قررنا في النهاية ان اليهود اليوم ليسوا من بنى اسرائيل ، وان هؤلاء شيء وأولئك شيء آخر انثروبولوجيا ، وألا رابطة بين الطرفين الا الدين والدين فقط .

أفكار خاطئة

وتخريجا من هذا وترتيبا عليه ، تسقط على الفور عدة أفكار ومعتقدات شائعة ومتفشية ولكن لا ظل لها من الحقيقة فى نظر العلم الصحيح • فأولا ، ما دام اليهود لم يعودوا من الساميين فى شىء ، فيمكننا هنا أن نرى الخطأ الشائع الفاشى ، ان لم يكن المغالطة الكبرى العامدة، فى تسمية اضطهاد اليهود « بضد السامية » ، فنحن فى الحقيقة ازاء « ضد اليهودية » ببساطة وبلا تعقيد • ولا تفسير لهذه التسمية الخاطئة الا أنها تعتمد على أسس الانجيل والتوراة آلتى تسبق بكثير التغير الجذرى والاحلال والابدال المطلق الذى لحق دماء اليهود • والاضطهاد النازى لليهود فى ألمانيا لم يكن فى جوهره الا اضطهاد ألمان لألمان ، لا يقل معظمهم عنهم فى الآرية والنوردية ، وانما يختلفون فقط فى الديانة وطريقة الحياة •

يسقط كذلك ببساطة وتلقائية أى دعوى قرابة دم بين العرب واليهود : قد يكون يهود التوراة والعرب أبناء عمومة ـ وانما تاريخيا فحسب حين بدأ الكل قبائل مختلفة من الساميين الشماليين وحين كانت العبرية لغة تشتق من الاصول العليا التى تفرعت عنها العربية ، وقد يكون من الصحيح ، بل انه لصحيح بالفعل ، أن اسماعيل أبا العرب واسحق أبا اليهود أخوة غير أشقاء وكلا ابن

ابراهيم ـ ولكن فى البداية فقط تصدق هذه الاخوة على تسليمها ، أما بعد ذلك فقد ذاب نسـل أحدهما فى دماء غريبة ووصل الذوبان الى حد الاحلال حتى أصبحنا ازاء قوم غرباء لا علاقة لهم البتة باسحق فضلا عن اسماعيل. ولا يمكن بعد أن اختفى يهود التوراة كشبح أن يكون يهود أوربا والعالم الجديد أقارب العرب جنسيا أكثر من قرابة الاوربيين والامريكيين للعرب ! وغير هذا ـ حتى لو قال به ملوك العرب ابتداء من فيصل بن الحسين الى فيصل آل سعود ـ ليس الا من قبيل أوهام العوام بل جهالات الملوك !

ان اليهود اليوم انما هم اقارب الاوربيين والأمريكيين ، بل هم في الاعم الاغلب بعض وجزء منهم وشريحة ، لحما ودما ، وان اختلف الدين . ومن هنا فان اليهود في اوربا وامريكا ليسوا كما يدعون غرباء او اجانب دخلاء يعيشون في المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت ، وانما هم من صميم اصحاب البيت نسلا وسلالة ، لايفرقهم عنهم سـوى الدين . اما أين يمكن أن يكون اليهود غرباء في منفى ودخلاء بلا جذور فذاك في بيت العرب وحده ، في فلسطين حيث لايمكن لوجودهم الا أن يكون استعمارا واغتصابا بالقهر والابتزاز . وغير هـذا قلب بشع لحقائق التاريخ انثروبولوجيا وغير انثروبولوجى .

وانطلاقا من هـذا يسـقط كذلك أى ادعاء سياسى للصهيونية فى « أرض الميعاد » . فبغض النـظر عن أن القانون الدولى يتكفل بشجب وتفـجير ادعاءاتهم على أى أساس تاريخى أو دينى ، فان الانثروبولوجيـا تبدد أى أساس جنسى قد يزعمون فى هذا الصدد . فمن ناحيـة

ليس اليهود قومية ولا هم شعب أو أمة ، بل هم مجـرد
طائفة دينية تتألف من أخلاط من كل الشعوب والقوميات
والامم والاجناس • ومن ناحية أخرى فلا علاقة لهم جنسيا
أو انثروبولوجيا بفلسطين ، وهم أجانب غرباء عنها دخلاء
عليها مثلما يعد الاوربيون أو الامريكيون بالنسبة اليها •
وهم حين يغتصبونها ليخلقوا منها اسرائيل الصهيونية ،
فليست هذه عودة الابن القديم بعد رحلة طالت عبر الزمان
والمكان ، وانما هى غزو الاجنبى الغريب بالاثم والعدوان•
أيضا وفى النهاية أن نرفع نغمة حذر أو تحذير حول قضية
وتداعيا وانطلاقا من هذا الانتهـــاء الاخير ، ينبغى

ليست هى القضية الفلسطينية ولكنها تشبهها أو بالاحرى
تشبه بهـــا ، ونعنى بذلك ما يسمى دعوة « الصهيونية
الســـوداء » • فالاخوة الافريقيون فى صـحوة نهضتهم
الحديثة قد وجدوا ــ كارث من عصر الرقيق ــ قطاعا منهم
خارج افريقيا فى العالم الجـديد يعيش فى أدنى السلم
الاجتماعى وتحت ضغوط التفرقة العنصرية الضارية• ومن
ثم نادى بعضهم ــ جارفى والجارفية Garvey ــ بالعودة
الى افريقيا الام كحل لمشكلتهم فى أمريكا • وبغض النظر
هنا عما لاقته الدعوة عمليا وفكريا من فشل أو معارضة،
فقـد كان أثيرا لدى أصـــحابها تشبيه الموقف بموقف
الصهيونية : فجعلوا تهجير الرقيق الافريقى الى العـــالم
الجديد هو « الخروج الاسود Black Exodus » و
« الشتات الافريقى A. Diaspora » ، وجعلوا أفريقيا

الآم هى « أرض الميعاد » و « الوطن القومى » ورؤيا العودة
هى « الصهيونية السوداء » ...

والذى يعنينا هاهنا ليس الحكم على الدعوة أولها ،
وانما أن ننبه أصدقاءنا الافريقيين برفق الى خطورة وخطأ
التشبيه . فاذا كان زنوج أمريكا هم فعلا وحقا من سلالة
افريقيا ، فان الاغلبية الساحقة من يهود عالم اليوم ليسوا
من بنى اسرائيل أو سلالة فلسطين فى شىء . واذا كان
لزنوج أمريكا نظريا حق تاريخى وجنسى فى العـودة الى
افريقيا ، فليس لليهود مثل ذلك الحق بتاتا بالنسبة الى
فلسطين . ومن ثم فلامجال ولاوجه للتشبيه بالصهيونية.
بل انه لتشبيه يسىء الى فكرة العودة الافريقية أكثر مما
يفيدها .

والصهيونية من جانبها تتلقف هذا التشبيه لتتقرب
به الى زنوج الولايات المتحدة والعـالم الجـديد وتستدر
عطفهم المخـــدوع على حركتهم العادية الغاصبة . انه اذن
تشبيه غير موفق ، وهو غير صحيح الى ذلك وقبل ذلك ،
ومن الخـير لأصدقائنا الافريقيين وخير قضيتهم وقضيتنا
معا أن يسقطوه والفكرة الخاطئة التى تكمن خلفه .

المصادر

— W.Z. Ripley, The Races of Europe, Lond., 1900.

— C.S. Coon, The Races of Europe, N.Y., 1939.

— Julian Huxley, A.C. Haddon, A.M. Carr-Saunders, We Europeans, Pelican, 1939.

— J. Deniker, Les Races et les Peuples, Paris, 1926.

— Egon E. Bergel, Urban Sociology, McGraw-Hill, 1955.

— Ellsworth Huntington, Palestine and its Transformation, Boston, 1911.
————————, The Pulse of Progress, N.Y., 1926.
————————, Mainsprings of Civilization, N.Y., 1945.

— C.S. Coon, «Have the Jews a Racial Identity», in Jews in: a Gentile World, ed. Graeber & Britt, N.Y., 1942.

Y.M. Goblet, Political Geography and the World Map, Lond., 1955.

A.C. Haddon, The Races of Man, Cambridge, 1924.

M.F. Ashley Montagu, Introduction to Physical Anthropology, Springfield, 1951.

Walter Fitzgerald, The New Europe, Lond., 1946.

Adolphe Landry, Traité de Démographie, Paris, 1949.

W.F. Ogburn, M.F. Nimkoff, A. Handbook of Sociology, London., 1953.

P. Sorokin, Contemporary Sociological Theories, N.Y., & Lond., 1926.

George Adam Smith, Historical Geog. of the Holy Land, N.Y. 1932.

ـ نجلاء عز الدين : العالم العربى ، القاهرة (مترجم)

ـ جمال حمدان : المدينة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤



الثمن ٣ ج